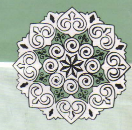
جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أعلام الإسلام
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربي
(٧)



# قيس بن سعد الأنصاري

أ. د. عبدالعزيز غنيم عبدالقادر

القاهرة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أعلام الإسلام
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربي
(٧)

# قيس بن سعد الأنصاري

أ. د. عبد العزيز غنيم عبد القادر

القاهرة
ذو القعدة ١٤٢٥هـ - ديسمبر ٢٠٠٤م

يشرف على إصدارها

الدكتور / **محمود حمدى زقزوق**
وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور / **عبد الصبور مرزوق**
نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمــة

لم يكن أصحاب النبى صلوات الله وسلامه عليه سواءً فى أقـدارهم، ولا فى أفكارهم، ولا فى قـدرتهم على العـمل، واستعدادهم لأدائه، ولم يكونوا سواءً كذلك فى قربهم من النبى - عليه الصلاة والسلام - ولا فى حظوتهم لديه، ولا فى تفانيهم فى نشـر الدين الحنيف الذى هبط الوحى به، وإنما كـانوا متفاوتين فى هذا كله تفاوت الزُهر فى الأفق، أو تفاوت الزَهر فى الروض. وفى هذا يقول الله تعالى:[1]

**«لايستـوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى»**. ويقول سبحانه:[2] **«والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعـوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه»**.

ومعنى هاتين الآيتين أن أصحاب النبى - عليه الصلاة

(١) سورة الحديد ١٠.

(٢) سورة التوبة ١٠٠.

والسلام – ليسوا طبقة واحدة، متساوية فى الفضل والقدر، وإنما هم درجات بعضها فوق بعض.

صحيح أنهم كالنجوم بأيهم نقتدى نهتدى، غير أن النجوم ليست سواسية فى حجمها ولا فى نورها ولا فى المكان الذى تحل فيه، وإنما هى متفاوتة فى هذا كله تفاوتاً محسوساً وملموساً، فضياء الشمس ليس كنور القمر ، ونور زحل ليس كنور سهيل، وهكذا الأصحاب رضوان الله عليهم، منهم من هم كالشموس، ومنهم من هم كالأقمار، ومنهم من هم كالشهب السابحة فى الأفلاك، وأعلاهم مكانة عند الله وعند الناس هم الذين عناهم النبى – عليه الصلاة والسلام – فى قوله: «الله الله فى أصحابى فوالذى نفسى بيده لوتصدق أحدكم بمثل أحد ذهبا ما ساوى صاعه ولا نصيفه» .

فأنت ترى أن النبى – عليه الصلاة والسلام – يعلن فى الناس أن له أصحاباً مختلفين تماماً عن غيرهم مما رأته أعينهم وصدقته قلوبهم وألسنتهم، وأن الفرق شاسع بين هؤلاء وأولئك المتازين الذين عناهم، النبى صلوات الله وسلامه عليه.

وقد تسأل: لماذا أضاف النبى – عليه الصلاة والسلام – هؤلاء

إلى نفسه وأعلن أن الفرق بعيد فى الأجر والجزاء لهم عن سواهم ؟

والجواب : أن هؤلاء الأبرار قد تربوا على يدى النبى - عليه الصلاة والسلام - ونشأوا ونموا تحت رعايته وعنايته، وسبقوا غيرهم إلى عبادة الله وحده، وتطبيق تعاليم دينه ومبادئه، والناس لهم عدو يعضون الأنامل غيظا منهم، ويتلمظون تلمظ الأفاعى حقداً عليهم، ورغبة فى إفنائهم وإراحة الأرض منهم، فلم يستوحشوا لقلتهم ولم يمالئوا الأعداء خوفاً منهم، ولا رغبة فيما فى أيديهم.

وقد تسأل : وهل كان هؤلاء من المهاجرين وحدهم كما يفهم من الحديث الشريف؟

والجواب : لا. وإنما كانوا ثلة من المهاجرين وقليلاً من الأنصار، التزموا للنبى - عليه الصلاة والسلام - فخصهم النبى - صلوات الله وسلامه عليه، وسقاهم من إيمانه وأفاض عليهم من نوره، وآتاهم مما آتاه الله، من جرأة فى الحق، وقوة فى العلم، ونبل فى الهدف، وقدرة خارقة على جهاد النفس والعدو، ويقين بأن الخير كله فى حب الله ورسوله، وأن الشر كله فى

معصيتهما والبعد عن طريقهما، وإلى هذه الثلة أو هذه العصابة كان يعنى - صلوات الله وسلامه عليه - وقد لمعت نذر الحرب فى بدر وتناوحت رياح القتال فى ساحتها وأقبل الموت من كل مكان يُرغى ويُزبد «اللهم نصرك الذى وعدت، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض».

فكبار الصحابة إذاً هم حواريُّ النبى - عليه الصلاة والسلام - وتلاميذه الذين أعدهم لنشر دينه وحمل المشعل من بعده، والدعوة الخالصة إلى سبيله والانقياد التام والشامل له - صلوات الله وسلامه عليه - فى السلم والحرب، والمنشط والمكره، فهم الفرسان الأشداء إذا حميت المعارك والتهبت المواقع، إن كانوا فى الساقة كانوا فى الساقة، وإن كانوا فى المقدمة كانوا فى المقدمة، لا يطلبون قيادة ولا ينشدون رياسة، وإنما يطلبون أجرهم من ربهم، ويبتغون جزاءهم من مولاهم وخالقهم، وهم الرهبان الأتقياء، إذا هبت نسائم السلام وانقشعت سحائب النزاع والخصام. يُعلِّمون الجاهل، ويُرشدون الضال، ويرفعون قيود الرق والعبودية، وينشرون ألوية العدالة والحرية.

وقد شاء الله أن ينتشر هؤلاء الغُر الميامين فى أرض الإسلام ويتقاسموا الإقامة فى ربوعها وأقاليمها، فيقيم فى الحجاز منهم فريق، وفى العراق فريق، ويقيم فى الشام منهم فريق، وفى مصر فريق، وهكذا ينتشر النور والفضل، ويتدفق العلم والنبل، ويجد عباد الله حيثما كانوا من يُسمعهم حديث رسول الله ﷺ ويشرحه لهم ويسقيهم من سلسبيله، ويربيهم على مبادئه وتعاليمه.

ويشهد التاريخ أن كل واحد منهم فى بلده كان مدرسة تشع منها العلم والمعرفة ، ويفوح من حولها أريج الحكمة والثقافة، وأن كلَّ إمام فى مكانه كان واحة خضراء، أو دوحة ورقاء، يهرع إليها العطاشى والمحرورون، فيجدون الظل الظليل والماء النمير والنسمة الناعمة الحالمة.

من أجل هذا كان واجبا على المنقطعين للتاريخ أن ينشروا آثار هؤلاء الصحابة الكبار رضوان الله عليهم، ويذيعوا ذكرهم فى كتيبات صغيرة الحجم قليلة الثمن، يترجمون فيها لأشخاصهم، ويميطون النقاب عن جهادهم وكفاحهم ، ويجعلوها أشبه ما تكون بالسبل التى كانت منتشرة فى البلاد لسقى العطاشى ورى الظمأى، وبهذا نكون قد جمعنا بين إحياء ذكرى هؤلاء العظماء،

وإرواء الناس من فيض علومهم ومعارفهم.

ولنبدأ من هؤلاء بمن نزلوا مصر وشاركوا فى فتحها، ثم الأقرب فالأقرب بعد ذلك من حواضر الإسلام وأقاليمه.

وقد رأيت أن يكون قيس بن سعد - رضى الله عنهما - هو أول حلقة فى هذه السلسلة المباركة لما له من مواقف خالدة وأعمال مرموقة فى السلم والحرب معاً.

فقد خدم النبى - عليه الصلاة والسلام - وحارب تحت لوائه وكان بمثابة الأمير لشرطته، كما كان كذلك فى عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم، ووقف إلى جانب علىٍّ - كرم الله وجهه، وإلى جانب ولده الحسن من بعده.

وكان مثلاً يضرب لمن حكم فعدل، وقاتل فرحم، وجاد فأغدق وأخلص العبادة وزهد فى الدنيا فأدهش الزهاد والعُبَّاد.

والله ولى التوفيق.

**أ.د/عبدالعزيز غنيم عبد القادر**

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

# المدينة قبيل الإسلام

ما كاد العام الرابع من البعثة النبوية المباركة يُظلُّ البلد الحرام حتى أخذ النبى - عليه الصلاة والسلام - يأتى القبائل فى أسواقها، ويزورها فى مواسمها، داعياً إياها للإيمان به، والدخول فى دينه، والدفاع عنه حتى يُبَلِّغ آمناً رسالة ربه.(1)

وكان المشركون من أهل مكة يبعثون وراءه من يكذبه، ويشوه دينه، ويؤكد لمن يأتيهم من العشائر والبطون، أنه ساحر كذاب، يفرق بين الأخ وأخيه، وبين الابن وأبيه، وبين المرء وعشيرته(2)، وأن ما يتلوه عليهم مما يزعم أنه وحىٌ أُوحىَ إليه من قبل المولى سبحانه، ليس إلا أساطير وأباطيل يعلمه إياها قين(3) أعجمى.

وكان أكثر المشركين تتبعاً له، ونيلاً منه أبو لهب، وأبو جهل(4)، فكان لا ينفك أحدهما أو كلاهما يسير خلفه، ويُشيع مقالة السوء فيه.

---

(1) ابن كثير. البداية والنهاية ١٣٩/٣.

(2) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٢١٦/١.

(3) القين: الحداد.

(4) المقريزى. إمتاع الأسماع ٣٢/١ - ٣٣.

ومع أن أكثر القبائل كانت تصغى إلى هذين الأفاكين. وتؤذى محمداً - صلوات الله عليه - بالقول حيناً، وباليد حيناً آخر. فإن ما كانا يقولانه فيه لفت الأنظار إليه، وجعل ذوى الحجر والعقل يفكرون فيما يدعو إليه، وما ستكون عاقبةُ أمره. ويقطعون بأن دينه سيظهر، وأن سلطانه سيقوى وينتشر. وأن نهاية حياته ستكون خيراً.

ولم يكن النبى - عليه الصلاة والسلام - يقتصر على زيارة سوق عكاظ، والمجَنَّة، وذى المجاز، وغيرها من الأسواق فى المواسم، والمناسبات للتحدث إلى العشائر فى خيامها، والبطون فى مضاربها، وإنما كان إذا عرف أن فارساً معلَماً، أو شاعراً مُبَرِّزاً أو خطيباً مفوهاً، ذا ذهن ثاقب. ورأى صائب فى قومه أتى مكة حاجاً أو معتمراً، طفق يتصدى له. ويتحين الفرصة للقائه، والتحدث إليه، وإسماعه بعض ما نزل عليه لعله ينقاد له، ويدخل فى دينه.

ومن هؤلاء الرجال الذين لقيهم - صلوات الله عليه - على كَثَب فى الكعبة، البيت الحرام: سُويد بن الص ت[1] أحد د يثرب وزعمائها.

---

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٢/٢٣٢.

يقول الرواة: إن قومه كانوا يدعونه الكامل[1]. وهو لقب لم يكن العرب يطلقونه إلا على من حاز عدداً من الصفات منها: السباحة، والرماية، والقراءة، والكتابة، وقرض الشعر، وركوب الخيل، إلى غير ذلك من المناقب[2] التى كانت تُطريها البيئة ويحمدها ذو العقل والمروءة.

ويقول الرواة كذلك: إن النبى - عليه الصلاة والسلام - ما كاد يلقى سويداً حتى ألقى عليه السلام، ودعاه إلى الإسلام، وذكر له بعض ما كان قد ترك من تعاليمه، ومبادئه، وسويدٌ يسمع. فلما انتهى - صلوات الله عليه - من حديثه قال: هذا حسن. غير أن عندى مثله، قال - صلوات الله عليه - وما عندك؟ قال: مجلة لقمان. قال - عليه الصلاة والسلام - فاقرأها علىَّ. فلما قرأها قال: هذا كلام طيب، وما عندى خيرٌ منه وأفضل.[3]

وراح يتلو عليه شيئاً من القرآن، وسويد منصت فلما انتهى - صلوات الله عليه - قام سويد، وأخذ طريقه إلى يثرب.[4]

---

(1) محمد يوسف الصالحى. سبل الهدى والرشاد ٢/ ٦٠٠ - ٦٠١.

(2) محمد يوسف الصالحى. سبل الهدى والرشاد ٢/ ٦٠١.

(3) ابن حزم. جوامع السيرة ص ٩٨.

(4) المقريزى. إمتاع الأسماع ١/ ٣٢.

وهناك راح يفكر فى محمد - صلوات الله عليه - وما جاء به من الهدى والنور حتى أضاء الحق قلبه، ونفذ الإسلام إلى شغاف نفسه، غير أن الزمن لم يمهله حتى يعلن إسلامه بين يدى النبى - عليه الصلاة والسلام - فقد قتلته الخزرج قبل بُعاث. وما يشك قومه فى أنه مات على الإسلام.(١)

وما أشك فى أن استقبال النبى - عليه الصلاة والسلام - لسويد وحواره معه، قد أيقظ فى نفسه ذكريات كانت قد مضت، إلا ما كانت قد خمدت أو كادت. فقد تراءت أمام عينيه ﷺ يثرب، وراحت ذكرياتها تبدو له شيئا بعد شىء، فيأسى قلبُه، وتفيض شجونه. وسيطر الحزن على عواطفه ومشاعره. أليست هذه هى القرية التى آوى إليها أبوه؟ وهو فى طريقه عائداً من الشام، فأناخ عليه المرض، وثقلت عليه العلة، ومازال يعانى ما يعانى فى دور أخواله بنى عدىّ بن النجار(٢)، حتى أنشبت المنية أظفارها فيه، ومات بعيداً عن أهله وبلده(٣) ووحيده الذى لم يزل جنيناً فى بطن أمه لمِ ير النور بعد!!

---

(١) ابن سيد الناس. عيون الأثر ٢٠٤/١.

(٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٧٦/٢.

(٣) ابن كثير. البداية والنهاية ٢٧٩/١.

أليست هى التى زارها وهو غلام يَفع، لم يبلغ السادسة من عمره لزيارة قبر أبيه(١) فأقام فيها شهراً(٢) يلهو كما يلهو الأطفال، ويرتع ويلعب كما يرتع ويلعب الغلمان. أليس هذا هو بئر بنى عدىّ الذى كان يتعلم فيه العوم؟ وهذا الأُطُم؟. أليس هو الذى كان ورفاقُه يطيرون الطيور حوله، وأنيسة الطفلة التى كان يداعبها عنده أحية هى؟ أما تزال ناعمة الطفرة خفيفة الظل كما كانت.

وأمه آمنة التى لم تكن تغفل عينيها عنه، ولا كان قلبها ينام عن رعايته والتفكير فى شأنه.

لماذا لم يطل مُقامها فى يثرب؟ إلا أنها خافت عليه من أذى اليهود، كما ألقت فى روعها أم أيمن؟

وطفق هذا الشريط من الذكريات يتوالى على فؤاده حتى أناخت أمه بعيرها بالأبواء مريضة(٣)، تنتظر الموت. وَجِعة، تتربص بها المنية حتى دنت ساعة الرحيل، فراحت تمسح براحتها الواهية رأسه، وتربت على ظهره وصدره وتوصى ربها

---

(١) محمد يوسف الصالحى: سبل الهدى والرشاد ٢/١٦٤.

(٢) المقريزى. إمتاع الأسماع ١/٢٤.

به، وهى على ثقة من أنه لن يدعه، ولن يتخلى عن حفظه ورعايته، ويسمع محمد - صلوات الله عليه - أمه، وهى دامعة العين، باكية القلب، تنشد أبياتا جاء فيها:[١]

بارك فيك الله من غلام ∴ يا ابن الذى من حومة الحمام
نجا بعون الملك العلام ∴ فودى غداة الضرب بالسهام
بمائة من إبل سوام ∴ إن صح ما أبصرت فى المنام
فأنت مبعوث إلى الأنام ∴ من عند ذى الجلال والإكرام
تبعث فى الحل وفى الحرام ∴ تبعث بالتخفيف والإسلام
دين أبيك البر إبراهام ∴ تبعث بالتحقيق والإسلام
أن لا تواليها مع الأقوام ∴ فالله أنهاك عن الأصنام

وقبل أن تلفظ هذه الأم الرءوف آخر أنفاسها، تمد يدها إلى طفلها فتقبل راحته، وتلثم خده ورأسه وهى تقول:[٢]

«كل حيٍ ميت، وكل جديدٍ بال، وكل كبير يفنى، وأنا ميتة وذكرِى باق، وقد تركت خيراً، وولدت طهراً» ثم تسلم الروح بعدها.

---

(١) محمد الصالحى: سبل الهدى والرشاد ١٦٥/٢.
(٢) محمد الصالحى: سبل الهدى والرشاد ١٦٥/٢.

استيقظت هذه الذكريات كلها فى قلبه صلوات الله عليه، وطفق شريطها يمر عبر فؤاده فتدمى جراحات فيه كانت قد أندثرت، وتوقظ أحزانًا كانت قد غفلت وهجعت، ويتمنى - صلوات الله عليه - أن تكون نصرة دينه على يد أخواله أهل يثرب(١). ويعقد العزم على أن يتعرض لكل من يأتى منهم مكة حاجاً أو معتمراً. فيدعوه إلى الإسلام. فمن يدرى لعل الله تعالى أن يهدى منهم من يُؤَمِّن ظهره، ويحمله إلى ذوى رحمه، فيعزروه، وينصروه، ويتبعوا النور الذى أنزل معه.

ويحقق المولى سبحانه هذه الرغبة، ويتيحُ السبيل إليها، ويهىء الفرصة التى تمناها ورغب فيها. ذلك أن العداء كان على أشده بين الأوس والخزرج، وهما سكان هذا البلد من العرب. وكان اليهود الذين غلبوا على أمرهم بعد قَتْل ملكهم الفطيون(٢). يؤججون نار هذه العداوة، وينفخون فى جمرها كلما وهن شررها، وضعفت ألسنتها. وذلك حتى لا يتوحد الأوسُ والخزرج(٣). فيخرجونهم من بلادهم، وينقون أرض يثرب من كيدهم ومكرهم.

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل الملوك ٢/١٧٦، ١٧٧.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/١٦٢، ١٦٤.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/١٤٦.

وسبب آخر هو أن اليهود كانوا هم الذين يوردون السلاح لهذين الحيين المتباغضين، ويقرضون كلاً منهما من المال ما يشجعه على الصمود فى الحرب والاستمرار فى القتال.

وكانوا لا يُعرضون هذه الأموال إلا بالربا المركب الذى يثرى اليهود، ويفقر العرب. ويجعلهم فى حاجة تامة إليهم.

ولكى يحقق اليهود هذين الهدفين معاً، فقد قسموا أنفسهم تجاه الأوس والخزرج. فحالف الأولى منهم فريق، وحالف الثانية فريق آخر، وأوهم كل فريق صاحبه أنه معه على الخير والشر، والعسر واليسر، حتى كان بُعاث[1] وهو مكان على مسافة ميلين من يثرب، أو حصن على مقدار هذه المسافة نفسها.

وقد شهد هذا المكان معركة ضارية[2]. تفانى فيها الأوس والخزرج حتى قُتل سُراتهم، وأبيد فرسانهم وأبطالهم[3]. ولم يبق من دورهم دار إلا وفيها يتيم يبكى أباه. أو أخ ينعى أخاه، أو أرملة تندب حظها على زوجها الذى فقدته، وعائلها الذى حال

---

(١) محمد الصالحى: سبل الهدى والرشاد ٣/٢٦٦.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/١٤٨.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/١٤٦ - ١٤٧.

الموت بينها وبينه.

وقد قاد هذه المعركة القاسية من الأوس حُضير الكتائب صاحب حصن واقم. وقادها من الخزرج عمرو بن النعمان البياض.[1]

وقد قُتل هذان الفارسان العلمان. وكان النصر فى بدايتها للخزرج، وكان فى النهاية للأوس[2]. غير أن كلاً منهما قد دفع الثمن غالياً من الرجال والأموال والشكَّة.[3]

وقد دارت رحى هذه الحرب قبل خمسة أعوام من هجرة النبى[4] - عليه الصلاة والسلام - إلى يثرب.

وتسألنى: ماهو السبب القريب الذى من أجله كان يوم بعاث؟

ولماذا كان هذا اليوم هو الذى مَهَّد السبيل لدخول الإسلام هذا البلد؟

والجواب :

---

(١) محمد الصالحى: سبل الهدى والرشاد ٣/ ٢٦٦، ٢٦٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢/ ٤١٧ - ٤١٨.
(٣) الشكة: عدة الحرب.
(٤) محمد الصالحى: سبل الهدى والرشاد ٣/٢٦٥.

أن رجلاً من الأوس قَتل حليفاً للخزرج[1]. وكان العرف لا يَقيد الصريح من الحليف. وإنما كان يلزم عاقلة القاتل الدية.

وقد عرضها الأوس على الخزرج، غير أن الأخيرة قد أبت إلا القصاص فقامت الحرب[2]. وكان منها ما كان.

يبقى الجانب الثانى من السؤال وهو: كيف ساعدت هذه الحرب على فتح الطريق أمام الإسلام، للدخول إلى يثرب. والانتشار فى الأوس والخزرج معاً والجواب:

أن هذه الحرب قد قضت على الجبارين المتغطرسين من أبنائها بين القبيلتين، ولم يبق فيها غير القليل ممن لا يمكنه الوقوف فى وجه الإسلام من أمثال عبد الله بن أُبَىّ بن سلول وغيره.

والسبب الثانى هو أن العقلاء من الأوس والخزرج كليهما قد تبين لهم أنهم لم يجنوا من المعارك والحروب غير يُتم الأطفال، وترمل النساء، وأنه لم يمض وقت طويل حتى يضع اليهود أيديهم

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢/٤١٦ - ٤١٧.

(٢) محمد الصالحى: سبل الهدى والرشاد ٣/٢٦٥.

على يثرب. ويصبح أطفالهم ونساؤهم سبايا لهم. ويبيعون فى الأسواق منهم من يشاءون، ويسترقون من يشاءون، وأن العقل والحكمة يحتمان عليهم أن يضعوا أيديهم بعضها فى بعض حتى يحولوا بين اليهود، وبين ما يعملون لتحقيقه، والوصول إليه.

وتأكد هذا المعنى فى نفوسهم بعد ما أخذ اليهود يشيعون أن نبيًّا سيظهر وقد آن أوانُه، وأنهم سيدخلون فى طاعته، ويقتلونهم به قتل عادٍ وإرم.[1]

وتساءل هؤلاء العقلاء. أين مخرج هذا النبى؟ ولماذا لا نسبق اليهود إليه، ونقتلهم تحت لوائه[2]، قبل أن يقتلونا، ويضعوا أيديهم على بلادنا؟

وفشى هذا التساؤل وانتشر حتى بات حديثَ القوم فى لهوهم وسمرهم، وفى جدهم وعبثهم.

وخرج معاذ بن رفاعة بن رافع، وابن خالته معاذ بن عفراء إلى مكة قاصدين البيت الحرام. فلما قدماها، وهبطا من الثنية

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٥٤.
(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٢٠٥.
(٣) إرم: إحدى قبائل عاد أو هى مدينة بناها أحد ملوكهم.

رأيا رجلاً تحت شجرة فقال أحدهما لصاحبه: أرأيت لو أتينا هذا الرجل فاستودعناه راحلتينا حتى نطوف بالبيت، فراقته هذه الفكرة واتجها معا إليه، فلما دنيا منه، سلما عليه سلام أهل الجاهلية، فرد عليهما تسليم أهل الإسلام. فقالا له: من أنت؟ قال: محمد بن عبد الله وقال انزلا، فنزلنا وقلنا: أين هذا الرجل الذى يدعى ما يدعى ويقول ما يقول؟ قال: أنا هو، قلنا: أعرض علينا الإسلام. فعرضه وقال: من خلق السموات والأرض والجبال؟ قلنا: خلقهن الله عز وجل. قال: فمن خلقكما؟ قلنا: الله عز وجل. قال فمن عمل هذه الأصنام التى تعبدونها؟ قلنا: نحن الذين عملناها. قال: الخالق أحق بالعبادة أم المخلوق؟ قلنا: الخالق. قال: فأنتم أحق أن تعبدوا ربكم وأنتم عملتموهن. والله أحق أن تعبدوه من شيء عملتموه، وأنا أدعوكم إلى عبادة الله عز وجل وشهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، وصلة الرحم، وترك العدوان، فقالا: لو كان الذى تدعو إليه باطلاً ما كان من معالى الأمور ومحاسن الأخلاق. فأمسك راحلتينا حتى نقضى حاجتنا من البيت. وجلس معاذ بن عفراء إلى جانبه – صلوات الله عليه – ومضى ابن خالته معاذ بن رفاعة فجاء البيت فطاف

حوله ثم أخرج سبعة أقداح، وجعل بينها للنبى - عليه الصلاة والسلام - قدحًا، واستقبل البيت وقال: اللهم إن كان ما يدعو إليه محمدٌ حقا فأخرج قدحه سبع مرات، ثم ضرب بها. فخرج قدحه - صلوات الله عليه - فى المرات السبع فصاح: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وولى وجهه شطر صاحبه، فلما رآه قال له: والله لقد جئت بوجه غير الوجه الذى انصرفت به. فلما قصَّ عليه ما جرى نطق هو الآخر بالشهادتين.

وأخذ النبى - صلوات الله عليه - يعلمهما سورة يوسف، وسورة العلق، فلما أتمَّهما عادا قافلين إلى يثرب.[1]

وأوضح من هذا الحدث أن معاذ بن رفاعة، ومعاذ بن عفراء كليهما كانا قد شغلهما أمر النبى الذى أشاع يهود عنه ما أشاعوا، وأنهما ما كادا يريانه، ويتحدثان إليه حتى راودتهما أنفسهما على تصديقه والانضواء تحت لوائه، فحاوَرهما فى لين، وجادلهما فى أناة.

وكان لا ينتقل معهما من سؤال إلى سؤال حتى يسمع

(١) محمد الصالحى: سبل الهدى الرشاد ٣/٢٦٣ - ٢٦٤.

جوابهما، ويطمئن إلى قناعتهما. وأنهما لمَّا دخلا فى الإسلام وأجابا نداء الإيمان لم يتركهما حتى علّمهما من القرآن ما يثبت إيمانهما. ويرسِّخ يقينهما.

وقد كان المعاذان رضى الله عنهما أول يثربيين دخلا فى الحنيفية بين يدى النبى[1] صلوات الله وسلامه عليه.

وما أشك فى أن هذين الصحابيين الكريمين قد ملأ يثرب حديثاً عن محمد - صلوات الله عليه - ودينه الذى يدعو إليه.

وما أشك كذلك فى أنهما راحا يدعوان إلى الإيمان به، والانقياد له قبل أن يسبقهم يهود إليه، ويقاتلوهم به حتى يستأصلوا شوكتهم ويُبيدوا شأفتهم. ويجعلوهم أحاديث. ويمزقوهم كل ممزق.

ولم يكد موسم الحج يظلُّ بلاد العرب حتى خرج فريق من أهل يثرب حاجاً وكان النبى - صلوات الله عليه - كدأبه يتحين مواسم الحج والعمرة، فيأتى القبائل فى مضاربها، ويزورها فى خيامها ليعرض عليها دينه[2]. ويتلو بين يديها بعض ما نزل عليه

(١) محمد الصالحى: سبل الهدى والرشاد ٣/٢٦٤.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/١٣٩.

من كتـاب ربه، ويدعـوها إلى خلع أصنامهـا التى نحتتـهـا من الحـجـر، ونجـرتهـا من الشـجـر. والتى لا تسـمع ولا تبـصـر، ولا تمشى ولا تبطش.

وإذا هو أمـام ستـة من الفـريق الذى قـدم مكة من سكان يثـرب وهم[1]: أسعد بن زرارة - وعوف بن الحارث - ورافع بن مالك - وقطبة بن عامر - وعقبة بن عامر - وجابر بن عبد الله.

فلما رآهم قال لهم: من أنتم؟ قالوا: رهط من الخزرج.[2] قال من موالى يهود؟ قالوا: نعم. فعرض عليهم الإسـلام. وتلا عليهم من القرآن.[3]

فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: هذا والله هو النبى الذى يتحدث عنه يهود وظهر على وجوهـهم البشْرُ والسـرور وقالوا: يارسـول الله إنا تركنا قومنا وبينهـم ما بينهم من الدمـاء، ومن العداوة والبغضاء، فإن يجمـعهم الله عليـك، فـلا أحـد أعـز علينـا منـك[4]. وإنا

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤٩/٣.

(٢) الرهط: العدد من ثلاثة إلى تسـعـة. قـال تعـالى: **﴿وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون﴾** [النمل ٤٨].

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٢٣٤/٢.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢١٨/١.

راجعون إليهم فمتحدثون بما سمعناه منك. وموعدنا الموسم المقبل إن شاء الله.(١)

ولا جدال فى أن النبى - عليه الصلاة والسلام - قد سرَّه ما سمعه من هذا الرهط، وطمع فى إسلام من وراءهم من الأوس والخزرج، ورسخ فى يقينه أن هذا هو أول الغيث، وأنه عمَّا قليل سيجد البلدة التى تؤيه والعشائر التى تدفع عنه وتحميه، واليسر بعد العسر، والفرج إثر الشدة والضيق كما يقرر المولى سبحانه فى كتابه الكريم: **﴿فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا﴾**.(٢)

ومن الرواة من يقول: إن هذا الحدث قد وقع فى رجب، وإن الفريق الذى جاء من يثرب إلى مكة، إنما كان يبغى العمرة.(٣)

وما ذكرته هو الأصح، فإن اجتماعه - عليه الصلاة والسلام - بوفدى العقبتين الثانية والثالثة قد كان فى موسم الحج. وسواء أصحّ ما ذهبتُ إليه، أم أن ما خالفه هو الصحيح، فإن النبى - عليه الصلاة والسلام - لبث ينتظر هذا الرهط عاماً كاملاً حتى

---

(١) ابن حزم: جوامع السيرة ص ٩٩.
(٢) سورة الشرح ٥ - ٦.
(٣) ابن كثير السيرة النبوية ١/ ٣٣١ - ٣٣٢.

إذا جاء موسم الحج، وخرج كما هى عادته لدعوة القبائل إلى الإسلام، رأى فى انتظاره اثنى عشر رجلاً من أهل يثرب بعضهم من الرهط الذى أسلم على يديه فى الموسم السابق والبعض الآخر ممن لم يشهد هذا الحدث وهم:[1]

ذكوان بن عبد قيس الزرقى، وعبادة بن الصامت، والعباس بن عبادة، وعويمر بن ساعدة، ومالك بن التيهان، وابن معوذ ابن الحارث.

وكم كان سروره - عليه الصلاة والسلام - وهو يستقبل هؤلاء الأبرار، ويصافحهم واحداً إثر آخر ويسمع منهم ما قالوه لقومهم، وما قاله قومهم لهم، ويحمد المولى سبحانه الذى أوجد الأرض الصالحة لنمو الإسلام وانتشاره وانتصاره.

فأهل يثرب أهل الحرب والعُدة، ورثوها كابرًا[2] عن كابر، فإذا دخلوا فى الإسلام، فلن يُهزم أهله عن قلة.. ولن يُستضعفوا عن وهنٍ أو ذلة، ومدَّ - صلوات الله عليه - إلى هؤلاء الاثنى عشر يده، فبايعهم على ألا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا،

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ١٥٠.
(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٢٣٩، ابن سيد الناس. عيون الأثر ١/ ٢١٧.

ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، **ولا يعصوه فى معروف**، فمن وفى ذلك منهم فأجره على الله، وله الجنة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو له كفارة وطهور، ومن أصاب من ذلك شيئاً فَسَتَره الله، فأمره إليه، إن شاء عَذَّب، وإن شاء غَفَر.(١)

والرواة يسمُّون هذه البيعة: بيعة النساء(٢). وهو كلام مقبول إذا كانت هذه التسمية بعد نزول سورة الممتحنة. وهى السورة التى تضمنت نص هذه البيعة. أما إذا كانت قبل ذلك ففى هذا الإطلاق نظر.

وقد أجاب العلماء عنه، فقالوا: إن هذه البيعة نزلت مرتين، أولاهما قبل الهجرة من مكة إلى المدينة، والثانية بعد إبرام صلح الحديبية، وهو كلام لا أساس له؛ لأن نزول هذه البيعة إثر صلح الحديبية بعد نزولها قبل الهجرة تحصيل حاصل أو تكرار لا تبرير له ولا تفسير.

والذى تسكن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب، أن هذه البيعة

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ١٥٠ - ١٥١.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٢٣٥.

قد وردت بنودُها على خاطر النبى - عليه الصلاة والسلام - ولسانه، فأخَذَها على أصحاب العقبة الثانية.

فلما نزلت بعد الحديبية، صارت قرآنا يتلى. ولم تكن كذلك من قبل، مثلها مثل الأذان، فإن الوحى لم ينزل به إلا بعد ما كان قد رآه عمر فى منامه.

ومهما يكن من شىء، فإن هؤلاء النفر بعد أن بايعوا رسول الله ﷺ وأشهروا إسلامهم بين يديه، طلبوا منه أن يبعث معهم مَن يتلو عليهم القرآن، ويعلمهم الأحكام[1]؛ فأجابهم إلى ما أرادوا، وبعث معهم مصعب بن عُمير. وعبدَ الله ابن أم مكتوم[2]، وهو الأعمى الذى عاتبه فيه ربه، ونزلت من أجله الآيات الأولى من سورة «عبس» وهى قوله تعالى: ﴿**عبس وتولى. أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى.**﴾.[3]

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية ٢٢٤/١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٥١/٣. ابن حزم. جوامع السيرة ص ١٠٢.

(٣) سورة عبس: الآيات/ ١ - ١٠.

والذى يتتبع آيات العتاب، التى نزلت فى حق الرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يشك فى أن ما نزل منها فى حق ابن أم مكتوم كان أقسى عتاب وجه إلى النبى - عليه الصلاة والسلام - من قِبَل ربه.

ومن أجل هذا كَانت لابن أم مكتوم مكانة خاصة فى قلب النبى - صلوات الله عليه - ومنزلة عالية فى أعماق نفسه.

وليس أدل على ذلك من أنه بعثه إلى أهل يثرب نائباً عنه فى الدعـوة إلى الإسـلام. وممثـلاً له فى تلاوة القـرآن وتوضـيح الأحكام.[1]

وبعد هجرته إلى المدينة، أنابه عنه فى حكمها ثلاث عشرة مرة[2]. وأشركه مع بلال رضي الله عنه فى الأذان[3]. وكان كلما رآه من بعيد هش له وبَش، والتزمه وهو يقول: أهلا بمن عاتبنى فيه ربى.[4]

وأيا ما كان، فإن مصعباً، وابن أم مكتوم كليهما ذهبا إلى

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٥١/٣.
(٢) ابن الأثير: أسد الغابة ٢٦٤/٤.
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣٤٣/٨.
(٤) الطبرى: جامع البيان ٣٢/٣٠ - ٣٤.

يثرب ونزلا فى دار أسعد بن زرارة رضي الله عنه. وراحا يدعوان مَن يقبل إليهما إلى الإسلام، ويقرآن عليهم القرآن.[1]

ويقول الرواة: إن أسعد رضي الله عنه صَحبَ مصعباً، وابن أم مكتوم، ومضى بهما قاصداً ديار بنى الأشهل، وظفر. وفى أحد منازل ظفر جلس أسعد وصاحباه[2]: مصعب، وابن أم مكتوم. وتحلق حولهم رجال ممن كانوا قد دخلوا فى الإسلام، وبلغ هذا الخبر أسيد بن حُضير، وكان فى نادى قومه، وإلى جانبه سعد ابن معاذ، فأبلغه إياه وقال له محرضاً على أسعد بن زرارة رضي الله عنه أحلف بالله أن أسعد لم يفعل ما فعل إلا لقرابته منك. فغضب سعد غضباً شديداً، وطلب من أسيد أن يأتى الدار التى فيها مصعب وابن أم مكتوم، ويزجرهما وقال فى تبرير هذا العمل: والله لولا قرابة أسعد منى ما وَكلت هذا العمل إلى غيره.[3]

(١) ابن حزم: جوامع السيرة. ص ١٠٢.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٢/٢٣٥.

(٣) محمد الصالحى: سبل الهدى والرشاد ٣/٢٧١.

ومضى أسيد ﷺ حتى أتى الدار آنفة الذكر فلما رآه أسعد قال لصاحبيه: هذا والله سيدُ قومه، هذا أسيد بن حُضير، فكلماه برفق، وخاطباه بأناة، ولما دنا أسيد من الرجلين قال لهما: ما مقامُكما فى هذه الدار؟ أجئتما إلينا تفسدان صفوها، وتدعوانهم إلى مفارقة ماهم عليه مما ارتضاه الأباء، وتوارثه عنهم الأبناء؟ فقالا: اجلس نحدثك فإن رضيت أمراً قبلته، وإن أبيته عزلنا عنك ماتكره. قال: أنصفتما، وركز حربته وجلس، فدعواه إلى الإسلام وقرأ عليه شيئاً من القرآن. وإذا وجه الرجل يشرق، وإذا قسَمَاتُهُ وأساريرُه يشع منها نور الهداية والاستجابة، وإذا هو يقول: ما الذى يفعله المرء إذا أراد أن يدخل فى هذا الدين؟ فيقول مصعب وابن أم مكتوم: يغتسل ويطهّر ثوبه وينطق بالشهادتين، ويصلى لله ركعتين.(١)

ويمتثل ابن حضير ﷺ لهذا التوجيه، ويأخذ حربته ويَمضى إلى نادى قومه، ويراه سعد بن معاذ مقبلاً من بعيد، فيقول: والذى يحلف به لقد عاد إليكم أسيد بوجه غير الوجه الذى غادركم به، ويبادره قائلاً: يا أُسيد ماذا صنعت؟ فيقول: ما صنعتُ والله إلا

(١) ابن سيد الناس . عيون الأثر ١/٢١١

الخير، ولقد علمت أن بنى حارثة قد خرجوا يريدون أسعد ليقتلوه كيما يخفروك فيه، فيغضب سعد ، ويأخذ الحربة، ويمضى قاصدا ابن خالته، وما إن يراه أسعد مقبلاً من بعيد حتى يقول لصاحبيه: هذا سعد بن معاذ، هذا سيدُ قومه، ووالله لإن دخل فى الإسلام فلن يخالفه من قومه اثنان.(١)

وما يكاد الرجل يدنو من مبعوثى النبى - صلوات الله عليه - حتى يقرِّعهما ويعنِّفهما ويقول لأسعد بن زرارة: يا أبا أُمامة... والله مافعلت مافعلت إلا لمكانك منى ويخاطبه مصعب، وابنُ أم مكتوم كلاهما قائلَين: اجلس نحدثك. فإن رضيت أمراً قبلته، وإن أبيته عزلنا عنك ما تكره.

ويجيب سعد: أنصفتما والله. ويركز حربته، ويُرهفُ سَمْعَهُ.

وما إن يَقْرع القرآنُ أُذنى سعد بن معاذ حتى يندفع إلى شغاف نفسه فى قوة ويتسربَ إلى أعماق قلبه فى سرعة وشدة.

وإذا وجهه يتهلل كأنه فِلقة قمر، ويقول: والله إن هذا كلام ما سمعت مثله. فما الذى يفعله من يريد الدخول فى هذا الدين الذى تدعوان إليه؟.(٢)

---

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ٣/١٥٣ (٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٢/٢٣٧.

فيكرران عليه ما قالاه لأُسيد من قبله، فيقوم سعد فيغتسل، ويطهر ثوبه ويعلن الشهادتين[1] بين يدى مصعب ، وابن أمّ مكتوم رضى الله عنهما، ويأخذ حربته ويمضى إلى نادى قومه.

وما إن يراه أسيد مقبلاً حتى يتأكد أنه قد دخل فى الإسلام، ويقول لقومه: لقد جاءكم سعد بوجه غير الذى غادركم به، وما إن يتوسط الرجل النادى حتى يقول: يا بنى عبدالأشهل كيف تعلمون رأيى فيكم؟ قالوا: أفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله فما أمسى فى ديار بنى عبدالأشهل رجل ولا امرأة إلا دخل فى الإسلام[2]، حاشا عمرو بن ثابت بن وقش، فقد تأخر إسلامه إلى يوم أُحد.

وقد كان لدخول هذا الحى الكبير عن بكرة أبيه فى الإسلام هزّة فى شتى أرجاء يثرب، فقد أخذ الرجال والنساء يتوافدون على مبعوثى النبى - صلوات الله وسلامه عليه - يعلنون الإسلام، ويحفظون القرآن؛ حتى لم تعد تتسع لهم دارُ أبى أُمامة أسعد بن زُرارة.

---

(١) محمد الصالحى. سبل الهدى والرشاد ٣/٢٧٣ - ٢٧٤

(٢) ابن حزم. جوامع السيرة، ص ١٠٢ - ص ١٠٣.

فانتقل الرجلان إلى دار أخرى، أرحب وأوسع، وأطلق عليها آنذاك، دار القراء.[1]

ولم يفشُ الإسلام فى الأوس وحده كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما فشا فيها وفى الخزرج أيضاً.

وليس معنى هذا أن يثرب كلها قد أسلمت، فقد بقيت فيها دور كثيرة ظلت على الشرك والوثنية، ومنها على سبيل المثال: دار بنى أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف، وتلك أوس الله وهم من الأوس بن حارثة.

والسر فى هذا، هو أنه كان فيهم أبوقيس بن الأسلت، واسمه صيفى وكان لهم شاعراً، وقائداً، يطيعونه، ويسمعون منه، فوقف بهم عن الإسلام.

وقد كان أبو قيس هذا قد تَرهَّب فى الجاهلية، ولبس المسوح وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، واعتزل النساء، وهمَّ بالنصرانية ثم أمسك عنها، ودخل بيتًا له فاتخذه مسجداً، لايدخل عليه فيه حائض ولا جُنب وقال: أعبدُ إله إبراهيم.وقد شاء الله أن

(١) ابن كثير. السيرة النبوية ٣٣٦/١.

تحسن خاتمة هذا الرجل، ولايموت إلا وهو من المسلمين ذلك أنه لما أتى رسول الله ﷺ المدينة مهاجراً، جاءه هذا الرجل، وأعلن إسلامَهُ بين يديه.[1]

وقد كان قوَّالاً للحق، معظِّماً لله فى الجاهلية، وإنما صد عن الإسلام، ورغَّب عنه قومَهُ، لأنه لم يكن قد تفقه فيه، ولا تأمل فى مبادئه وتعاليمه، فلما اتضح الحق له، وبرز سافرا أمام عينيه، لم يتردد فى اعتناقه، والانضواء تحت لوائه.

وعلى كل حال فإن الإسلام لما فشى فى يثرب، ودخل فيه الكثير من أشراف الأوس، وأشراف الخزرج كليهما، راح المسلمون يفكرون فى رسول الله ﷺ وما يلقاه من العنت والكيد، وكانت نفوسهم تذهب حسرات عليه وهم يتصورونه وهو يجوب جبال مكة وشعابها، ويزور أسواق العرب، خاصها، وعامَّها، ويأتى القبائل والعشائر فى خيامها، ومضاربها[2]، كل ذلك بحثاً عمن ينصره، ويأخذ بيده حتى يُخرج الناس من ظلمة الباطل إلى نور الحق، ومن ضيق الجهل إلى رحابة العلم، ومن حياة الذئاب فى الغاب إلى حياة

---

(١) ابن الأثير. أسد الغابة ٢٥٧/٦

(٢) المقريزى. إمتاع الأسماع ٥١/١.

التحضر والتطور، فلا يجد من الناس شاكرًا، ولا يلْقى منهم ناصراً، وإنما يُسامُ الخسفَ من السفهاء والعقلاء على السواء.

فهذا يبصق فى وجهه، وهذا يحثو التراب على رأسه. وثالث يقول له: والله لو كان فيك خير لما تخلى قومك عنك، ولا أرسلوا رُسلهم تحذر منك، ورابع يحذر إخوانه وبنى عشيرته قائلاً لهم: احذروا هذا الفتى من قريش لا يُضلكم ويفتنكم، ويمضى بكم إلى سوء المصير، وخزى الدهور.

وكانوا كلما ذكروا ذلك سالت دموعهم. والتهبت زفراتُهم. وودوا لو يستعيرون أجنحة الطير حتى يذهبوا إلى مكة، ويخلصوا نبيهم من أعدائه والناقمين عليه.

وما كاد موسم الحج يُظلُّ بلاد العرب حتى خرج منهم سبعون رجلاً وامرأتان[1] ظاهر أمرهم.. الرغبة فى الطواف بالبيت، والسعى بين الصفا والمروة.وباطنه لقاء النبى - صلوات الله عليه - وحمله معهم إلى بلادهم ليعززوه وينصروه، ويحموه مما يحمون منه الأنفس، والأموال، والذرية.

---

(١) محمد الصالحى. سبل الهدى والرشاد ٣/٢٧٨.

وكان كعب بن مالك، والبراء بن معرور هما أول من التقيا به[١] منهم. وقد سأله البراء عن عدوله عن قبلة قومه إلى الكعبة، وكان - عليه الصلاة والسلام - آنذاك يستقبل الشام، فقال له: لقد كنت على قبلة لو صبرت عليها.[٢]

ونظَّم كعب بن مالك معه - صلوات الله عليه - اللقاء المرتقب بينه وبين إخوانه، فأعلمه النبى - عليه الصلاة والسلام - أن مكانه العقبة، وأن زمانه الهزيع الأخير من الليل، وأن التوجه إليه يجب أن يتم فى سرية وكتمان[٣] حتى لا يصل نبأُهُ إلى المشركين فيفضحوه، ويعملوا جاهدين على ألا يأتى هذا اللقاء أُكُله ، ويبلغ هدفَهُ وغايتَهُ.

وعاد كعب رضي الله عنه فأبلغ هذه التعاليم إلى أصحابه، ولما جاءت الليلة المحددة سلفاً بين الأنصار وبين النبى - عليه الصلاة والسلام - أتى القوم رحالَهم، وناموا فيها حتى مضى ثلثُها الأول، وذلك حتى يخفوا على قومهم من المشركين ما كانوا قد اتفقوا عليه، ثم خفُّوا فرادى يتسللون إلى[٤] العقبة تسلل القطا، حتى إذا

(١) ابن هشام. السيرة النبوية ٢/ ٦١. (٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٢٣٨.
(٣) ابن سيد الناس. عيون الأثر ١/ ٢١٦. (٤) ابن حزم. جوامع السيرة ص ١١٥.

بلغوها وجدوا رسول الله ﷺ فى انتظارهم عندها.[1]

وجـاء فـى إحـدى الـروايات أنهـم همُ الذين انتظروا النبى[2] - صلوات الله وسلامه عليه -.

وسواء أصحَت هذه الرواية، أم أن سابقتها كانت هى الصحيحة، فإن الأنصار قد أحاطوا بنبيهم - صلوات الله عليه - إحاطه الهالة بالقمر، وبدأ الكلامَ عمُّهُ العباس بن عبدالمطلب[3]، وقد كان يومئذ على دين قومه، فقال:[4] يامعشر الخزرج «وكان العرب يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها» إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز فى قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافّون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده.[5]

---

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ١٥٩/٣. (٢) محمد الصالحى. سبل الهدى والرشاد ٢٧٩/٣.
(٣) ابن كثير. السيرة النبوية ٣٤٥/١. (٤) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٢٣٩/٢.
(٥) المقريزى. إمتاع الأسماع ٣٥/١.

وأخذ الكلمة أسعد بن زرارة رضي الله عنه، فقال: رويدا يا أهل يثرب فإنا لم نضرب إلى محمد أكباد المَطا إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم إلينا مفارقة للعرب كافة. وقتْل خياركم، وأن تعضكم السيوف. فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم. وقتل خياركم، ومفارقة بنى جلدتكم فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة، فدعوه فهو أطهر لقلوبكم. وأعذر لكم عند ربكم.[(١)]

فقالوا: ابسط يدك يا أسعد، فوالله لا نذر هذه البيعة ولاتستقبلُها.

وجاء دور النبى - صلوات الله عليه - فحمد الله وأثنى عليه، ودعا إلى دينه، وقرأ آيات من كتاب ربه وقال: تبايعوننى على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فقال البراء بن معرور: نعم، فوالله الذى بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرنا فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهلُ الحلقة ورثناها كابراً عن كابر[(٢)] وطلب الكلمة أبو الهيثم بن التَّيهان فأُعطيت له فقال: يارسول

(١) ابن سيد الناس. عيون الأثر ٢١٧/١.

(٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٢٣٩/٢.

الله: إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها، «يعنى اليهود» فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «بل الدمُ الدم والهدم الهدم أنتم منى وأنا منكم، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».(١)

فقال أحدهم: فمالنا يارسول الله، إذا نحن وفَّينا ونصرنا، فقال صلوات الله عليه: لكم الجيشة، ثم بسط يده وراح الأنصار يبايعونه واحداً إثر الآخر.(٢)

ولما تمت البيعة، قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيباً، يكونون كفلاء على قومهم، وأنا كفيل على قومى.(٣)

فأخرجوا له تسعة من الخزرج(٤)، وثلاثة من الأوس(٥). فأقر النبى - صلوات الله عليه - هذا الاختيار، ونقَّب على هؤلاء الاثنى عشر بأبى أمامة أسعد بن زرارة نقيب بنى النجار.

---

(١) محمد الصالحى . سبل الهدى والرشاد ٣/ ٢٨١.

(٢) ابن هشام. السيرة النبوية ٢/ ٦٧.

(٣) ابن كثير. البداية والنهاية ٣/ ١٦١ - ١٦٢.

(٤) ابن هشام. السيرة النبوية ٢/ ٦٥.

(٥) ابن كثير . السيرة النبوية ١/ ٣٤٦.

والسر فى إختياره لهذا المنصب الرفيع، هو أنه شهد اجتماعات العقبة الثلاثة، وحمى مبعوثى النبى - صلوات الله عليه - إلى يثرب، حتى أدَّيا رسالتهما، وحققا الغاية التى من أجلها أنا بَهما النبى صلوات الله عليه عنه.

وعلى هذا الأساس فإن تقلُّدَهُ لهذا المنصب قد كان لجهاده، وحسن أثره فى سبيل ربه، وليس لأنه كان أحدَ أخواله - عليه الصلاة والسلام - كما قد يُخَيَّل لأصحاب الهوى والغرض.

وقد شاء الله ألا يبقى أبو أمامة هذا طويلاً فى منصبه، فقد وافتهُ المنية بعد تسعة أشهر من هجرة[1] النبى - صلوات الله عليه - إلى المدينة، والمسجد الجامع فيها مايزال يبنى.

ولما مات رضي الله عنه أتى قومه رسول الله ﷺ وقالوا: يارسول الله نقِّب علينا، فقد مات أسعد بن زرارة، فأجابهم - صلوات الله عليه - «أنتم أخوالى، وأنا نقيبكم»[2]. وهكذا لم يشأ - صلوات الله عليه - أن يضع فى منصب أبى أمامة أحداً غيره.

(١) ابن الأثير. أسد الغابة ٨٧/١

(٢) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٦١١/٣.

والذى يطالع الروايات التى تناولت اختيار النقباء الاثنى عشر يتبين له أن هذا الانتخاب هو أول انتخاب عرفه التاريخ، وأنه قد تم فى نزاهة وحرية، وأن النبى - صلوات الله عليه - لم يتدخل فيه من قرب ولا من بُعد؛ وإنما أعطى الأنصار فيه الحرية المطلقة التى لاضغط فيها ولا إكراه.

وأيًا ما، فإن هذا الاجتماع، أو هذا المؤتمر قد أسفر عن نتيجتين لكل منهما أثرها، وخطرها فى تاريخ الإسلام، أولاهما: البيعة، والثانية: تنقيب النقباء.

فقد فتحت النتيجة الأولى الباب على مصراعيه أمام هجرة - النبى صلوات الله عليه - وأصحابه إلى المدينة.

وطمأنت الثانية النبى - عليه الصلاة والسلام - إلى أن حمايته، وحماية المهاجرين معه قد أُلقيت على عواتق أمينة.

* * *

## ظهور سعد بن عبادة على مسرح الأحداث

الذى يطالع الروايات التى سجلت أخبار اجتماع بيعة العقبة، أو هذا المؤتمر، يتبين له وجوه أحدها: أن النبى - عليه الصلاة والسلام - أمر أن ينفضَّ هذا الاجتماع أو هذا المؤتمر سرًا كما انعقد[1] سراً. وذلك حتى لا تفطن إليه قريش، فتعمل جاهدة على إبطال ما أدَّى إليه من نتائج. وما تَمَخَّضَ عنه من قرارات.

ويظهر أن المشركين قد وضعوا للنبى - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه المراصد وبثوا حولهم العيون. والدليل على هذا أنه ما كاد يصبح الصباح حتى أتى وفد من قريش أهل يثرب فى مضاربهم، وكانوا خمسمائة «مابين مسلم ومشرك»، وقالوا لهم: تعلمون ما بيننا وبينكم من المحبة والمودة، وأنه لا يسرُّنا أن يكون لنا ما طلعت عليه الشمس، وأن الحرب قد شبت بين مكة ويثرب. فقالوا: ما الخطب؟ قالوا: بلغنا أن طائفة منكم بايعت محمداً بن عبدالله، على الإيواء والنصرة له، ولمن آمن به[2]. وكان عبدالله بن أُبَىٍّ بن سلول جالسًا، فقال: والذى يحلف به ما حدث شىء مما تقولون، ولو كان لعلمت به قبل وقوعه، فما كان قومى يصنعون شيئاً حتى يشاورونى فيه.[3]

---

(١) ابن سيد الناس . عيون الأثر ٢١٦/١ . (٢) ابن هشام . سيرة النبوية ٦٨/٢.

(٣) ابن كثير . السيرة النبوية ٣٤٩/١.

فقام وفد قريش، وغادر رحال القوم، وهو غير مقتنع بما أجاب به ابن أُبى وأضرابه.

وقد تسأل: كيف عرفت قريش خبر اجتماع العقبة ومادارفيه وقد انعقد سرا، وانفض سرًا كما عرفنا؟

والجواب من وجهين، أحدهما: أن قريشاً قد وضعت المراصد على النبى - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه، وراقبت حركاتهم وسكناتهم. وأن عيونها هى التى نقلت إليها أخبار هذا الاجتماع وما وقع فيه.

والوجه الثانى هو: أن إبليس قد نادى من فوق أحد جبال مكة: يامعشر قريش إن مذمما وصباء يثرب معه قد اجتمعوا عند العقبة(١). وكان منهم كيت وكيت. وأن بعض المشركين قد سمعوا هذا النداء، فكان بينهم وبين أهل يثرب فى رحالهم ما كان.

ومع كثرة طرق هذه الرواية وأسانيدها، فإن فى النفس منها شىء: لأن الشيطان لو نادى على أحد جبال مكة، وذكر اجتماع العقبة ومادار فيه، ما انحصر سماع صوته فى بعض مشركى

(١) المقريزى. إمتاع الأسماع ١/٣٧.

قــريش دون بعض، ولا خــفى نبــؤه عن أهل يثــرب، أوســهم، وخـزرجـهم،ولأثار ضـجـة بين أبناء الموسم كافـة. ولم يكن هذا، ولا بعْضُهُ قد وقع.

والنتيجة هى: أن عيون قريش، وليس غيرُها هى التى نقلت هذا الخبر، وأبلغته إلى قادتها وزعمائها.

والوجــه الثـانى هـو: أن سـعــد بن عـبـادة بن دُليم الأنصــارى الخزرجى[1] «والدقيس الذى خصصت هذه السطور للتأريخ له»، قد أخذ طريقه إلى الظهور على مسرح تاريخ الإسلام، فقد اختاره قومُهُ فى هذا الاجتماع نقيبًا على بنى ساعدة، وهم فرع من فروع الخزرج.[2]

ومـا كـان قـومـه ليـفـعلوا ذلك إلا والرجل مـعـدود من سـادتهم وأشرافهم، وأولى الحول والطول فيهم.

وهذا حق. فقد كان سعد هذا يدعى الكامل فى الجاهلية[3]. وما كان يستحق هذا الوصف إلا من جمع بين السباحة، والرماية، والقراءة، والكتابة، والكرم، والفروسية.[4]

---

(١) ابن عبدالبر. الاستيعاب ٢/٢٥ - ٣٦. ابن حجر. الإصابة ٢/٣٠

(٢) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٣/٦١٤. (٣) ابن حجر. الإصابة ٢/٣٠.

(٤) ابن الأثير. أسد الغابة ٢/٢٥٦.

وكانت هذه المناقب وغيرُها متوافرة فيه.

ويقول الرواة: إن سعدا، وأباه عبادة، وجده دُليم، كانوا جميعاً من أجاويد العرب وأسخيائهم، وكان لهم أُطم[1] ينادون عليه إذا أصبح الصباح، وإذا أمسى المساء، من كانت له حاجة إلى اللحم والتمر والسمن فليأت حصن قيم[2]. وكانوا يَهْدُوَن البُدْن إلى الكعبة البيت الحرام كل عام فينحرونها ويُبيحونها للإنسان والحيوان والطير[3]. كل ذلك إلى مالا يُحصى من المناقب والفضائل.

والتاريخ لا يعرف على سبيل القطع والتأكيد متى أسلم سعد ابن عبادة، وأكبر الظن أنه أسلم على يد مصعب بن عمير، وعبدالله ابن أم مكتوم أثناء إقامتهما فى يثرب قبل هجرة النبى - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه إليها.[4]

ومهما يكن من شىء فإن سعداً لم يكد يدخل فى الإسلام حتى اختير نقيباً على قومه بنى ساعدة ليلة العقبة الثالثة.[5]

---

(١) الأطم: الحصن

(٢) ابن عبدالبر. الاستيعاب ٣٦/٢.

(٣) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٦١٤/٣

(٤) ابن الأثير. أسد الغابة ٢٥٦/٢

(٥) ابن عبدالبر. الاستيعاب ٣٦/٢.

وما كاد يلي هذا المنصب الرفيع، حتى ابتلاه الله تعالى بالإيذاء من أهل مكة، فإن قريشاً قد تأكدت من أن ما بلغها عن اجتماع العقبة، وما اتخذه من قرارات قد حدث، وليس أمامها إلا أن تحصر المسلمين الذين بايعوا محمدا - صلوات الله عليه - على الإيواء والنصرة وتقتلهم أو تتخذ منهم رُهُناً حتى تستوثق من أن أهل يثرب لن يَفُوا لمحمد - صلوات الله عليه - بما أعطوه إياه. غير أنهم عرفوا أن هؤلاء المسلمين قد أخذوا طريقهم إلى بلادهم، فبعثوا في أثرهم مَن يقبض عليهم ويعيدُهم، بيد أنهم لم يروا منهم إلا رجلين: أما أحدهُما فالمنذر بن عمرو، وأما الآخر فسعد بنُ عبادة رضى الله عنهما.[1]

وقد أعجزهم المنذر فلم يقدروا عليه[2]، وأخذوا سعداً وقيدوه وراحوا يضربونه ويسبونه.[3]

وندع الرجل يقصُّ ماوقع له، فيقول:[4] والله إنى لفى أيديهم إذ طلع علىَّ نفر من قريش فيهم رجل وضيء أبيض شعشاع حلو من

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية ١/٣٤٩.

(٢) المقريزى، إمتاع الأسماع ١/٣٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ٢/٦٨-٦٩.

(٤) ابن كثير، السيرة النبوية ١/٣٤٩ - ٣٥٠.

الرجال. قلت فى نفسى: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا، فلما دنا منى رفع يده فلطمنى لطمة شديدة قلت فى نفسى: لا والله ما عندهم بعد هذا خير، فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ آوى لى رجل ممن كان معهم فقال: ويحك : أما بينك وبين أحد من قريش جوائز ولاعهد؟ قلت: بلى. والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى تجارة، وأمنعه ممن أراد ظلمه ببلادى، وللحرث ابن حرب بن أمية. قال: ويحك، فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما، ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما فى المسجد عند الكعبة فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطَح لَيَهتفُ بكما، ويذكر آن بينه وبينكما جسوراً، قالا : ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة، قالا: صدق. والله إنه كان ليجير لنا تجارتنا ويمنعنا أن نُظلم ببلده - فجاءانى فخلصانى من أيديهم، فانطلقت.

هكذا صوَّر سعد بن عبادة ما أصابه من إيذاء على أيدى حمقى قريش وسفهائها غير أن المطعم بن عدى، والحرث بن حرب بن أُمية. وكانا من قادة قريش، وزعمائها، قد تنبها إلى خطورة ماتورط

فيه الحمقى والسفهاء، فأهل يثرب أهل الحرب، ورثوها كابراً عن كابر[1]. وهم على طريق مكة التجارى. وفى مقدورهم نهب قوافل قريش، وقتل حُرَّاسها، فإيذاءُ سعد بن عبادة، وهو أحد وجهاء الخزرج، وثُرَاتها[2] ليس بالأمر الهيِّن، الذى يمكن أن يمرَّ دون أن يكون له من العواقب ماليس فى صالح أهل مكة.

ومن أجل هذا خفَّ الرجلان على الغور، وأطلقا سراح سعد، فانطلق إلى بلاده[3]، وفى نفسه ما فيها من الضغن على قريش، والإصرار على الإدانة منها، وإعطائها من الدروس والعبر ما لا سبيل إلى نسيانه، ولا إلى تجاهله.

وقد سجل ضرار بن الخطاب بن مرداس هذ الحدث فى شعر جاء فيه:[4]

| | |
|---|---|
| تداركتُ سعداً عنوة فأخذتُهُ | وكان شفاءً لو تداركت منذرا |
| ولو نلتُهُ طُلَّت هناك جراحُهُ | وكان حرياً أن يهان ويهـدرا |

(١) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ٢/٢٣٩ (٢) الثراة: جمع ثرى وهو كثير المال.
(٣) المقريزى، إمتاع الأسماع ١/٣٧. (٤) ابن هشام، السيرة النبوية ٢/٦٩ - ٧٠.

ولما فى هذا الشعر من النَّيل من سعد والمنذر، رضى الله عنهما، فقد أجاب عنه حسان بن ثابت فقال[1]:

فلست إلى عمرو ولا المرء منذر    إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمَّرا

أتفخـر بالكتان لما لبستَــهُ    وقد يلبس الأنباطُ ريطاً مقصَّرا

فلولا أبو وهبٍ لمرت قصائد    على شرف البدقاء يهوين حسَّرا

فلا تك كالوسنان يحلم أنه    بقرية كسرى أو بقرية قيصرا

ولا تك كالثكلى وكانت بمعزل    عن الثكل لو كان الفؤاد تفكرا

ولا تك كالشاة التى كان حتفها    بحفر ذراعيها فلم ترض محفرا

ولا تك كالغاوى فأقبل نحره    ولم يخشه سهما من النبل مضمرًا

فإنا ومن يُهدى القصائد نحونا    كمستبضع تمراً إلى أهل خيبرا

ويظهر أن إسلام سعد بن عبادة، ومبايعته للنبى - صلوات الله عليه - على الإيواء والنصرة، قد هزَّ أركان قريش، وزلزل الأرض من تحت أقدامها، فقد كان بطلاً مهاباً، زعيماً مطاعاً، وكان له من المال والجاه[2] ما يجعله إذا أمر أُطيع أمره، وإذا نهى احترم نهيه.

---

(١) الكلاعى. الاكتفاء فى مغازى رسول الله ١/٤٢٦.

(٢) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٣/٦١٣، ابن عبدالبر. الاستيعاب ٢/٣٦.

ولم يكن فى يثرب مَن يكافئه ، ويسمو إلى منزله غيرُ سعد بن معاذ، الذى كان مسموع الكلمة فى الأوس. كما كان سعد بن عبادة مسموع الكلمة فى الخزرج.[1]

والدليل على أن قريشاً كانت تخشى هذين الرجلين، وتحسب لهما كل حساب، ما جاء فى بعض الروايات من أن أبا سفيان وطائفة معه من القادة والزعماء سمعوا هاتفاً من الجن ينشد من فوق جبل أبى قبيس هذه الأبيات[2]:

فإن يسلم السعدان يصبح محمدٌ بمكة لا يخشى خلاف المخالف

أيا سعدُ سعد الأوس كن أنت ناصرا ويا سعدُ سعد الخزرجين الغطارف

أجيبا إلى داعــى الهـدى وتمنيا على الله فى الفردوس مُنية وارف

فإن ثـواب الله للطالــب الهـــدى جنان من الفردوس ذاتُ رفارف

فهذا الشعر - كما ترى - تصوير بديع لخوف قريش من إسلام السعدين، واعتقادها أن محمداً سيكون فى أمنٍ ومنعة.

---

(١) ابن الأثير. أسد الغابة ٢/٢٥٦. ابن حجر. الإصابة ٢/٣٠

(٢) ابن كثير. السيرة النبوية ١/٣٥٠.

أما الجن، وصياحهم على جبل أبى قبيس، فخيال ملك عليهم مشاعرَهم وعواطفَهم، حتى استقر فى وجدانهم أنهم يسمعون هذا الإنشاد بآذانهم، ويَعُونَهُ بأفئدتهم.

وأيًا ما كان فقد مضى سعد بن عبادة ﷺ إلى يثرب، وراح ينشر فيها الإسلام، ويتلو على أهله وغيرهم القرآن، ويمهد لاستقبال من يفدُ إليهم من مكة مهاجراً، ويعاونهم ويُضَيف مَن آوى إلى عشيرته منهم، ولما هاجر النبى - عليه الصلاة والسلام - وصاحبه أبو بكر، كان سعد بن عبادة ممن هشَّ لهما. وخفّ لاستقبالهما، وعرض عليهما النزول فى منزله أو فى منزل أحدٍ من عشيرته حيث العدد الكثير، والمال الوفير، والمنعة القوية، القادرة على دَحر العدو وقهره وإنزال الهزيمة والبوار به.

* * *

## نشأة قيس بن سعد وإسلامه

قد كان لسعد هذا من الأبناء، فتى ورث عنه: جوده، وسخاءه، ومروءته وإباءه، وحبه للإسلام، وجهاده المتصل تحت ألويته وراياته.

وكان هذا الفتى يسمى قيساً[1]، ويكنى أبا الفضل. أو أباعبدالله، أو أباعبد الملك[2]. وذكر ابن حبان أنه كان يكنى أبا القاسم.[3]

ولا جدال في أن تعدد الكُنَى وتنوعها، دليل على ارتفاع منزلة صاحبها. وما كان له في قومه من علو الذكر. وحسن الأثر.

والمؤرخون، وإن لم يذكروا متى ولا أين ولد هذا الفتى، فإن الدلائل كلها تشير إلى أن ولادته كانت في يثرب، وأنها وقعت قبل انبثاق الإسلام فيها، وأن قيساً كان فتى يافعاً، وشاباً قوياً عندما انقاد أبوه للحق، وانضوى تحت لواء الحنيفية السمحة.

وقد نشأ قيس في بيت كرم وشرف، فجده دُليم. الذي كان أحد سادات بني ساعدة، وأجواد الخزرج[4] وكان يُنادي على أُطُمِه كل صباح. وكل مساء.. من كان يريد اللحم، أو التمر، أو السمن، فليأت

---

(١) ابن الأثير. أسد الغابة ٤/٤٢٤.

(٢) ابن عبدالبر. الاستيعاب ٣/٢٤٩

(٣) ابن حجر. الإصابة ٣/٢٢٤

(٤) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٣/٦١٣.

أُطُمَ دُليم، وليأخذ حاجته من هذه الأطعمة[1].

وجدهُ عبادة الذى كان صنوى دُليم فى بطولته وفروسته، وفى شهامته ومروءته. وقد كانت له بُدُنٌهُ التى كان يُهديها فى كل عام إلى الكعبة، البيت الحرام، والتى لم يكن يُصَد عن لحمها الإنسان، ولا الحيوان ولا الطير.[2]

وأبوه سعد الذى نسج على منوالهما، وزاد عليهما، حتى ضربت الأمثال بجوده، ومشيت الركبان بمدحه، والثناء عليه.[3]

ومثل هذا البيت السَّامق لاينشأ أبناؤه إلا على حب الفضائل، وبغض الرذائل، وعمل الخير، وإشاعة البر، والتمكين للأخلاق الرضية، والشِّيَم الزكية، وكذلك كان قيس منذ عقل ماحوله إلى أن وافاه أجلُه.[4]

والرواة وإن لم يذكروا لنا متى أسلم قيس، وهل كان إسلامه قبل هجرة النبى - عليه الصلاة والسلام - إلى بلاده، أم بعدها.

فإنى أرى أنه قد دخل فى هذا الدين القيم فور اعتناق أبيه له.

فقد كان قيس يُجلُّهُ، ويحترمُ عقله، ولايخرج عن طاعته.

(١) ابن الأثير، أسد الغابة ٢٥٦/٢.
(٢) ابن حجر، الإصابة ٣٠/٢.
(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى ٦١٤/٣.
(٤) الزركلى، الأعلام ٥٦/٦.

وكانت البيوتات الكبيرة فى هذه الأزمنة، يوقر فيها الصغيرُ الكبير، ويقتفى فيها الابن أثر أبيه فى الخير والشر على السواء.

ويكفى أن يتصدرُ السيد المطاع أَمَرهُ، حتى يلتزمه قومُهُ كافة، الرجل منهم والمرأة، والشيخ والشيخة.

وليس أدل على هذا من أن سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما اهتدى إلى الحق على يدى مصعب بن عمير، وعبدالله بن أم مكتوم، أتى بنى الأشهل فى ناديهم، وقال لهم: «يابنى الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.(١)

وما أشك فى أن سعد بن عبادة لم يكن فى بيته وقومه أقل تأثيراً من سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإذا صح ماذهبتُ إليه، من أن إسلام قيس كان قبل الهجرة، وعلى يدى أبيه سعد بن عبادة فإنى أظن، بل أقطع أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يأتى مصعباً، وابن أم مكتوم، فيسمع منهما، ويقرأ عليهما ما حفظ من القرآن الكريم، ومن توجيهات النبى المصطفى العظيم مايزيدُهُ

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ٢/٦٠

إيمانا على إيمانه، ويقيناً إلى يقينه.

وأظن كذلك، بل أقطع بأنه كان يُعاون أباه بعد عودته من بيعة العقبة الثالثة، فى نشر الإسلام، والتمكين لمبادئه وأحكامه. وكم كان سروره ﷺ وهو يرى النبى - صلوات الله عليه - ويستقبله ضمن فتيان الخزرج، وشبابها، وهم جميعاً ينشدون مع الجوارى، والصبيان[1]:

| | |
|---|---|
| طلع البدر علينا | من ثنيات الوداع |
| وجب الشكر علينا | مادعــا لله داع |
| أيها المبعوث فينا | جئت بالأمر المطاع |
| جئت شرفت المدينة | مرحبا ياخير داع |

وكم كان ﷺ يتيه فخراً، وهو يذكر أن بينه، وبين نبى الله - صلوات الله عليه - رحماً ماسَّة، وآصرةً وثيقة، أليست سلمى ابنة عمرو بن عدى بن النجار جدته صلوات الله عليه؟ أليس بنو النجار من[2] الخزرج؟ أليس هو من هذه القبيلة؟

(١) ابن كثير. السيرة النبوية ٣٨٢/١.

(٢) االطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٧٦/٢ . ١٧٧. محمد الصالحى سبل الهدى والرشاد ٣٠٨/١

فمـا أعظم الشـرف الذى سـمـا إليـه. ومـا أعلى الأوج الذى تربع عليـه، إنه وكل فـرد من أفـراد قـبيلتـه أخـواله صلوات الله عليـه، وهـو مجد لا يجحده أحد، ولا يمارى فيه إنسان.

* * *

## قيس رضي الله عنه فى حياة النبى ﷺ

وقد شاء الله أن يرفع قدر قيس، ويعلى مكانته، ويؤكد الوشائج والصلات التى تدنيه من نبيه صلوات الله عليه، وتجعله ذا حظوة لديه، ومكانةٍ فى نفسه.

فقد ذكر الرواة أن النبى عليه الصلاة والسلام ما كاد يدخل المدينة، ويقيم بين ظهرانى أهلها حتى صحب سعد بن عبادة ولدَه قيس، ومضى به إلى النبى عليه الصلاة والسلام، وسأله أن يجعله ضمن خدامه[1]. ووافق صلوات الله وسلامه عليه على الفور.

وما أشك فى أن سعدا لم يتخذ هذا القرار حتى استشار فيه ولده قيس، وأنه رضي الله عنه قد أبدى موافقته من غير تلكؤ، ولا تردد، فقد كان يحب النبى عليه الصلاة والسلام، ويفخر بالرحم التى تربط بينَهُ وبينه. ويرى أن خدمته له، وحبسه نفسه على قضاء حوائجه، وإنجاز مطالبه، شرف أى شرف. ومجدٌ أى مجد، صحيح أنه من بيتٍ لا يخدمُ أبناؤه أحدًا لكن الناس شىء، ورسول الله ﷺ شى آخر، يدل على هذا ما قاله خالد بن سعيد بن العاص عندما

---

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ٩٨/٨.

أسند إليه أبو بكر رضي الله عنه عملاً من أعماله، فقد رفضه في شدة وأنفة، وقال: نحن بني أُحيحة لانعمل بعد رسول الله ﷺ لأحد أبداً.[1]

ولم يكن سعد، ولا ابنهُ قيس أقل شرفاً، ولا أدنى منزلة من خالد بن سعيد بن العاص وأيمًا كان، فإن قيس مكث في خدمة النبي صلوات الله عليه عشر سنين[2]، وهي مدة حياته ﷺفي[3] المدينة ونظيره في هذا أنس بن مالك رضي الله عنه .

وهكذا سنحت الفرصة لقيس بن سعد، ليتأدب على يدى النبي عليه الصلاة والسلام، ويغترف من بحر علمه الذى لا ساحل له.

وما أظن أن ما اشتهر به من العلم والمعرفة، والخبرة والتجربة، والزهد[4]، والعبادة إلا نتيجة لهذا القرب الشديد من النبي صلوات الله عليه، والفوائد الجمة التي أخذها منه وتلقاها عنه.

وقد تسأل: في أي شيء كان يخدم قيس الرسولﷺ في قضاء حوائجه، أم في كتابة رسائله، أم في رعي لقاحه وبدنه؟

---

(١) ابن الأثير. أسد الغابة ٢/ ٩٨.　　(٢) الذهبي. سير أعلام النبلاء ٣/ ١٠٣.

(٣) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٣٨٩.　　(٤) المسعودي. مروج الذهب ٣/ ٢١.

والجواب: أن النبى عليه الصلاة والسلام كان خيرَ من يضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، وقد كان قيس حاد الذهن، مكتمل العقل، متوقد الفطنة[1]. وكأن الله عزوجل زاده بسطة فى العلم والجسم، حتى إن الرواة ليقولون إنه كان أطول أهل زمانه، وإنه كان إذا ركب الحمار خَطَّت رجلاهُ فى الأرض[2]. وكان على بدانته وسيماً، وعلى، وسامته قوى العضدين، مفتول الذراعين، أجرد اللحى، لاتنبت له فيها شعرة. حتى إن الخزرج كانوا يتندرون ويقولون: لو كانت اللِّحى تشترى بالأموال، لجمعنا من أموالنا مانشترى به لحية لقيس.[3]

ومن أجل هذه الصفات التى ذكرنا طرفاً منها، لم يكن النبى عليه الصلاة والسلام يخصُّ قيساً بمهمة بعينها، وإنما كان يلقى على عاتقه من المهام ما يتلاءم مع ما وهبه الله تعالى له من الاستعداد، فقد روى الرواة: أن قيساً ﷺ كان للنبى عليه الصلاة والسلام بمنزلة صاحب الشرطة مع الأمير.[4]

---

(١) الذهبى، سير أعلام النبلاء ١٠٨/٣.

(٢) ابن عبدالبر، الاستيعاب ٢٤٩/٣.

(٣) ابن الأثير، أسد الغابة ٤٢٦/٤.

(٤) ابن الجوزى، صفة الصفوة ٧١٥/١.

ومعنى هذا أنه كان إذا أراد أن يستدعى أحداً، أرسل إليه قيساً، وإذا أراد أن ينفذ حكماً، عهد به إليه... إلى آخر ذلك مما هو داخلٌ فى مهمة صاحب الشرطة.

ولاشك فى أن ما أتاه الله إياه من بسطة فى الجسم، وقوة فى البدن. كانت هى العلة فى إسناد هذه المهمة إليه دون غيره.

وقد ألقى النبى - عليه الصلاة والسلام - على كاهل قيس مهمة أخرى قريبة الشبه بسابقتها، وهى جبايةُ الصدقات[1]، ومعناها جمع الزكاة ممن تجب عليهم وتوصيلها إلى بيت المال لتوزيعها على الفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم. وفى الرقاب، والغارمين، وفى سبيل الله، وابن السبيل، كل حسب حقه الذى يحدده النبى صلوات الله وسلامه عليه.

وقد يخيل للبعض أن هذه المهمة سهلة ويسيرة، وليس كذلك. وإنما هى شاقة، ومتعبة، ولا يستطيع أن يقوم بها على الوجه الأكمل إلا من جمع إلى قوة الجسم قوة العقل، وجمع إليهما معاً يقظة الضمير، وعمق المراقبة للعلى الخبير، فإن على جابى

---

(١) الذهبى. سير أعلام النبلاء ١٠٣/٣.

الصدقات أن يأتى الأنعام من الإبل، والبقر، والغنم فى حظائرها، أو فى مراعيها، ليعرف عددها، ويقدر الزكاة المفروضة منها، ولا يبخس حق الفقراء بأخذ الضعيف النحيف، ولا حق الأغنياء بأخذ القوى البدين، وإنما يختار الوسط إلى آخر ما تتطلبه هذه المهمة الشاقة والحساسة.

وقد كان قيس عند حسن ظن النبى صلوات الله عليه به. فلم يرو أحد من الرواة، ولا من الإخباريين أنه عليه الصلاة والسلام قد أخذ عليه فى ممارسته لهذه المهمة شىء، ولا لامَهُ على عجزٍ ولا تقصير.

وقد كان صلوات الله عليه إذا لاحظ على أحد من عمَّاله ما يُشينه، أو يشكك فى براءة ذمته، لا يتردد فى إذاعته، والإفصاح عنه حتى لا يتورط فيه غيره، ولا ينسج على منواله سواه.

وأنت ترى هذا فى ما كان منه عليه الصلاة والسلام لابن اللتبيَة[1] عندما أسند إليه جباية الصدقات، فقد عاد إليه ومعه

(١) اسمه: عبد الله وهو رجل من الأزد.

أموال جباها ممن بُعث إليهم وقال : يا رسول الله هذا لكم، وهذا أهدى إلىَّ. فَرقى صلوات الله عليه المنبر وقال: أيها الناس، ما بالُنا نستعمل الرجل منكم على عمل من الأعمال التى خولَّها الله لنا. فيجيء ويقول : هذا لكم، وهذا أُهدى إلىَّ. فهلاَّ جلس فى بيت أبيه وأُمه. ونظر أيهدى إليه أم لا ؟».[١]

ولا جدال فى شدة هذا العتاب، وقوته. غير أنه هو العتاب المناسب لابن اللتبية وغيره ممن يطمعون فى المال العام، ولا يرون بأساً من أخذ شيء منه، فإن المُهدِى لا يقدم للمسئول عن جباية المال شيئاً إلا وهو يطمع فى الحصول على ماهو أكثر من هديته.

وقد نسج الفاروق ﵁ على هذا المنوال نفسه فى محاسبة الجباة[٢] والولاة. وله فى هذا المجال من الأحداث ما مشت به الركبان، ورواه الزمان للزمان.

وقد ألقى صلوات الله عليه على عاتق قيس ﵁ مهمةً ثالثة، أكبر وأخطر من المهمتين السابقتين، وهى إشراكه فى المعارك

(١) ابن الأثير. أسد الغابة ٦/ ٣٤٤ - ٣٤٥

(٢) ابن الأثير. أسد الغابة ٤/ ١٧٠ - ١٧١

والحـروب التى دارت رحـاها بينه وبين أعـدائه. فـقـد اصطحبـه صلوات الله عليـه فى غـزواته[1] وأمَّـرَهُ على بعض سـراياه. وكـان يدفع إليـه راية الأنصـار[2]، تماماً كـما كـان يدفعُ إلى علىّ كرم الله وجهه راية المهاجرين.

وكـما حمـل قيس المهـمتين السـابقتين فى أمـانة وشرف، وفى قـوة وكفاءة فـقد حمل المهـمـة الثالثـة فى إخـلاص نادر، واحتمـال ظاهـر، وكياسـة لا تتاح إلا لعباقرة الحرب، وأقطاب المعارك والمعامع.

ولا عجب فى ذلك، فهو الفـارس المعلَم، والقـائد المقـدم، والفدائى الذى يحمل روحه على كفيه فى سبيل نشر دينه، وإعلاء لواء نبيه.

والرواة يذكـرون لنـا أن النبى عليـه الصـلاة والسـلام اصطحب قيسـا معـه فى فتح مكة. غيـر أنه لم يدفع راية الأنصـار إليـه، كـما كان يفعل وإنما دفعها إلى أبيه سعد[3]. وقد كان الرجل شديدا على قريش. ينتهـز الفـرصـة لقهـرهـا والإدانة منها. ولا ينسـى مـوقفـها منه غداة بيـعة العقبة الثالثة، فـقد انطلق خلفـه سفهـاؤهـا، وأولو الطيش والحمق منها. ولم يكفوا عنه حتى قبضوا عليه، وجروه إلى الأبطح،

(1) ابن عبد البر. الاستيعاب ٣/٢٤٩. (2) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٢/١٣٥-١٣٦.
(3) الزركلى. الأعلام ٦/٥٦

وراحوا يجذبونه، ويوسعونه سباً ولكماً ولولا استجارته ببعض من كان يحمى تجارتهم منهم، لهلك فى أيديهم(١). وقد انتهز سعد ﷺ فرصة الزحف إلى مكة، وأنه حامل راية الأنصار فيه، لرفع عقيدته، وراح يرتجز: اليوم يومُ الملحمة، اليوم تستباح الحرمة. وسمع الفاروق وغيرهُ من المهاجرين هذا التحريض والتذميم وخافوا على قريش أن يراق دمها، وتزهق أنفس حماتها، وأبطالها.

فمشى ابن الخطاب ﷺ حتى أتى النبى عليه الصلاة والسلام، وقال له: يارسول الله، ألا تسمع ما يقول سعد فى قريش؟ قال: وما يقول ؟ فأسمعه الرَّجز الذى كان ينشده. فأمر صلوات الله عليه أن تؤخذ الراية منه، وتدفع إلى ولده قيس.(٢)

وقد التمس العلماء الحكمة من هذا العمل، ورأوا أن أخذ الراية من سعد ودفعها إلى ولده قيس(٣)، وقد كان تعبيرا عن استيائه عليه الصلاة والسلام من موقف سعد، واطمئنانه إلى أن ولده قيس أملك لغضبه من أبيه من جهة، وأكثر منه سياسة وكياسة من جهة ثانية.

---

(١) ابن هشام.السيرة النبوية ٢/٦٨-٦٩ (٢) ابن عبد البر. الاستيعاب ٣/٢٤٩.

(٣) ابن سعد . الطبقات الكبرى ٢/١٣٥-١٣٦

ولاجدال فى أن دفع الراية إليه دون غيره، سيقطع السبيل على اعتراض الأنصار كافة، واعتراض الخزرج منهم خاصة.

أما الأول: فلأن الراية لم تتعداهم ولا تجاوزتهم إلى غيرهم. وأما الثانى: فلأنها لم تنزع من الأب إلا لتوضع فى يد ولده.

وهكذا كان النبى - عليه الصلاة والسلام - يسوسُ أصحابه، فى بصيرة تامة، وفطنة نافذة، وذهن متوقد.

ومهما يكن من شىء، فإن قيساً رضي الله عنه قد بقى إلى جانب الرسول ﷺ، حتى فتحت مكة، وانهزمت ثقيف وهوازن ومن انضم إليهما، وانتهى النبى صلوات الله وسلامه عليه من تقسيم الغنائم التى كان قد أودعها الجعرانة[1]. ثم استدعى قيس بن سعد، وعقد له على أربعمائة من المسلمين. وأمر أن يأتى صُداء[2]، وهى إحدى قبائل اليمن، ويطأها وطئاً شديداً. ومضى قيس حتى عسكر بناحية قناة، وبلغ الخبر زياد بن الحارث، فخشى على قومه من قيس وجنوده، فأسرع إلى النبى عليه الصلاة والسلام، وطلب منه أن يسحب هذا الجيش، وأنه سيأتى له بقومه.

(١) المقريزى. إمتاع الأسماع ٣١١/١. (٢) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٣٢٦/١.

ولأنه - عليه الصلاة والسلام - كان يؤثر السلم على الحرب، فإنه بعث إلى قيس يأمره أن يعودمن حيث أتى. فامتثل ﷺ للأمر، وعاد أدراجه إلى المدينة؛ لأن النبى عليه الصلاة والسلام كان قد انصرف إليها بعد أن لم تكن له حاجة إلى البقاء فى مكة.

وثمَّ سرية أخرى سبقت هذه السرية، وهى سرية الخبط[1]، أو سرية سيف البحر، ويقول الرواة : إنها كانت فى رجب من العام الثامن للهجرة[2] وإن أميرها كان أبا عبيدة عامر بن الجراح[3] ومن المؤرخين من يقول :إن قيس بن سعد كان هو الأمير[4]. وهو مخالف للمحفوظ، وكان أبو بكر وعمر، كلاهما ضمن الثلاثمائة الذين خرجوا فى هذه السرية من المهاجرين والأنصار.[5]

وقد كان قيس بن سعد رضى اللع عنهما، فى أسفاره مع النبى صلوات الله عليه يستدين، وينحر لأصحابه إذا قحطوا. وقد أصابت رجال هذه السرية مجاعة حتى اضطروا إلى أن يأكلوا الخبط، فنادى قيس فى الناس: مَن يبيعنى خمسة[6] جُزُر، أو

(١) المقريزى. إمتاع الأسماع ١/٢٦٥-٢٦٦. (٢) ابن سيد الناس. عيون الأثر ٢/١٧٣.
(٣) ابن كثير.البداية والنهاية ٩٨/٨. (٤) الذهبى. سير أعلام النبلاء٣/١٠٤.
(٥) ابن الجوزى.صفة الصفوة ١/٧١٥-٧١٦.
(٦) الذهبى. سير أعلام النبلاء٣/١٠٤.

تسعة[1] على أن أدفع إليه فى المدينة عن كل جزور وسقين من تمر؟ وسمع النداء أعرابى من جهينة ، فقال: ما اسمك يافتى؟

قال: قيس قال: فانتسب، قال: قيس بن سعد بن عبادة بن دُليْم قال الجهنى: قد عرفت نسبك. وسلم إليه الجزر، فكان قيس ينحر منها فى كل يوم جزوراً أو أكثر ويطعم السرية[2]، حتى أخرج الله لهم حوتاً من البحر فطفقوا يأكلون منه[3]، وحملوا معهم من لحمه حتى عادوا إلى المدينة.

وكان أبو بكر وعمر رضيالله عنهما، لا يستحسنا هذا العمل من قيس ويقولان: إنه يستدين ولا مال له[4]، وإن أبا عبيدة رضي الله عنه كان يوافقهما على هذا النقد، وينصح قيساً أن يكف عن هذه العادة.[5]

أما هو، فقد كان مطمئناً إلى أن أباه سعد لن يتخلى عنه، ولن يترك الناس يلومونه، ويُذرون عليه.

وبلغ خبر المجاعة، أهل المدينة فقال سعد وهو مزهو بولده: إن

(١) ابن عبدالبر. الاستيعاب ٣/٢٤٩.  (٢) ابن الجوزى. صفة الصفوة١/٧١٦-٧١٧ .

(٣) ابن كثير. البداية والنهاية ٨/٩٩.  (٤) ابن الاثير. أسد الغابة ٤/٤٢٤.

(٥) ابن الجوزى . صفة الصفوة ١/٧١٧

قيساً سيعمل حتى يفرج هذه المجاعة عن أصحابه[1]، ولما عادت السرية إلى المدينة، أدى سعد دين ولده قيس[2] وزاد عليه . ولم يكتف بهذا وإنما وهبه أربعة حوائط أى بساتين، يُغل كل واحد منها من التمر كل عام أكثر مما استدانه قيس.[3]

ولأن أبا بكر، وعمر رضى الله عنهما، قد ألحَّا فى لومهما قيسا، فإن سعداً رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ وقال : من يعذرُنى من ابن أبى قحافة، وابن الخطاب؟ إنهما يبخلان على ولدى[4]. ولما بلغت القصة النبى عليه الصلاة والسلام قال: ألا إنه من بيت كرم[5]، يعنى قيس بن سعد.

فأنت ترى أن النبى - عليه الصلاة والسلام - كان يعرف لقيس قدره ويعرف المزايا والصفات التى كان يتميز بها عن غيره. ويعهد إليه من المهام بما يتناسب وماله من الطاقة والاستعداد .

والرواة يذكرون أن قيساً، وأباه سعداً، لم يكونا يجلان أحدا، كما كانا يجلان النبى صلوات الله عليه، ولا كانا ينعطفان إلى معشر كما كانا ينعطفان إلى المهاجرين من أصحابه، لما بذلاه فى نصرة

(١) الذهبى. سير أعلام النبلاء٣/١٠٥.     (٢) ابن الجوزى. صفة الصفوة ١/٧١٨.
(٣) الذهبى. سير أعلام النبلاء٣/١٠٥.     (٤) ابن الأثير. اسد الغابة ٤/٤٢٤.
(٥) ابن الجوزى. صفة الصفوة ١/٧١٨.

الإسلام من الجهود، وما لقياه فى سبيله من الأذى والكيد.

وشاعت مقالةُ الإفك فى أُم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها، وكان صفوان بن المعطَّل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أحد المتهمين فيها وكان حسان بن ثابت ممن أطلق لنفسه وشعره العنان فى اتهام صفوان، فلما عاد صفوان إلى المدينة وسمع ما يقوله حسان، ذهب إليه وضربه حتى كاد يقطعُ خيط نفسه،وبلغ الخبر النبى عليه الصلاة والسلام، فقال لرهط حسان: احبسوا صفوان، فإن مات صاحبكم، فاقتلوه به[1].

وعلم سعد ما كان، فخرج فى طائفة من الخزرج حتى أتى آل حسان وقال لهم : عمدتم إلى رجل من أصحاب رسول الله، تؤذونه وتهجونه، فغضب لما قيل له، ثم أسرتموه أقبح الأسر، ورسول الله بين أظهركم . قالوا: فإن رسول الله ﷺ أمرنا بحبسه وقال: إن مات صاحبكم فاقتلوه. قال سعد : إن أحبَّ إلى رسول الله للعفو، ولكنه صلوات الله عليه قضى بينكم بالحق، وإنه عليه الصلاة والسلام ليُحبُّ أن يترك صفوان، والله لأبرح حتى يطلق . قال حسان: ما كان لى من حق فهولك يا أباثابت، وأبى قومه إلا أن يحبس صفوان، ويقتل إذا هلك حسان، وكان قيس حاضراً فغضب

(١) الوا قدى . المغازى٢/٤٣٧.

غضباً شديداً وقال: عجباً لكم، ما رأيت كاليوم. إن حسان قد ترك حقه، وأنتم تأبون، ما ظننت أن أحداً من الخزرج يرد أبا ثابت فى أمر يهواه، فاستحيا القوم، وأطلقوا صفوان من وثاقه.(١)

ولا جدال فى ما لهذا الحدث من الدلالة على حب سعد، وقيس، كليهما للنبى عليه الصلاة والسلام، وأصحابه وإيثار ما يؤثر، ولو كان على حساب ما يراه قومهما ويفضلونه.

ولاجدال كذلك فى ما لهذا الحدث من الدلالة على زعامة سعد وابنه قيس للخزرج، وانقيادهم لهما، فإن حسان قد تنازل عن حقه فور مقالة سعد فى صفوان. وتنازل قومه عن حقهم كذلك فور مقالة قيس لهم: ما كنت أظن أن أحداً من الخزرج يخالف أبا ثابت فى أمر يهواه.(٢)

وقد تسأل: كيف عرف سعدُ وقيس كلاهما، أن النبى عليه الصلاة والسلام راغبٌ فى العفو عن صفوان؟ ولم يقل أحد من الرواة إنه عليه الصلاة والسلام قد أوفدهما إلى رهط حسان، ولا أنهما قد عرَّجا عليه، وهما فى طريقهما إلى رهط الرجل، والجواب:

(١) الوا قدى . المغازى٢/٤٣٧ .

(٢) نفس المصدر السابق ٢/٤٣٧ .

أن ابن المعطل ﷺ، قد اتهم فى الإفك ظلما[1]، وأن حسان قد هجاه ظلما كذلك، وأنه، أعنى صفوان بن المعطل، كان عبدا صالحا[2] ولم يعزى إليه من الأمور إلا ما يزينه، ويرفع من شأنه ومثل هذا الرجل جدير بأن يحبه النبى عليه الصلاة والسلام ويفضل العفو عنه.

والخلاصة : أن قيساً تتلمذ على يدى النبى صلوات الله عليه عشر سنين[3] كان فيها ملازماً له،: منقطعا إليه، يأمره فيمتثل لأمره، وينهاه فلا يتعدى حدود نهيه . ويضع على كاهله المهمة بعد الأخرى فلا يخيب ظنه فيه ولا يكذب فكره عنه.

ومن أجل هذا كان النبى - عليه الصلاة والسلام - يقربه ويدنيه، ويمدحه ويطربه، ومهما ينسى صلوات الله عليه فلا ينسى قيس. وهو يشارك فى قصعة أبيه التى كان يرسلها إلى دار أبى أيوب ﷺ لتحمل إلى حيث كان يقيم النبى صلوات الله عليه من هذه الدار.[4]

ويقول الرواة: إن هذه القصعة كانت من الكبر والاتساع، بحيث لم يكن يتمكن من حملها أقل من خمسة من الرجال الأشداء[5] ولم تكن تحمل هذه القصاع نوعاً بعينه من الطعام، وإنما كانت تحمل أنواع الطعام المعروفة فى هذا الزمن فمرة تحتوى الثريد واللحم

(١) المقريزى. إمتاع الأسماع ١/١٦٩/١٧١. (٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٢/٦١٤.
(٣) ابن كثير. البداية والنهاية ٨/٩٩. (٤) ابن سعد. الطبقات الكبرى٣/٦١٤.
(٥) ابن الاثير. أسد الغابة /٢٥٦.

ومرة تحتوى اللبن والسمن[1]... إلى آخر ما كان العرب يعرفونه من أنواع الغذاء.

ولم تتوقف هذه القصاع بعد انتقال النبى - عليه الصلاة والسلام - من دار أبى أيوب إلى حجراته التى بنيت له صلوات الله عليه، وإنما ظلت تأتيه حيث يكون[2] وحيث يحب أيضًا، ولأنه - عليه الصلاة والسلام - كان يؤثر عائشة على من سواها من نسائه فإن قصاع سعد كانت ترسل إلى حجرة عائشة رضي الله عنها[3] وكان النبى عليه الصلاة والسلام يأمر فيغرف لنسائه منها.

وما أرتاب في أن قيساً قد استقبل مرض النبى - عليه الصلاة والسلام - الذى مات فيه فى حزن، وعاش الأيام التى مرضها فى كآبة، وهم وبكى طويلاً عندما بلغه أنه صلوات الله عليه قد لبى نداء ربه وأجاب دعوة مولاه له. وما أرتاب كذلك فى أنه عليه الصلاة والسلام قد فارق الدنيا وهو عنه راض وبه قرير العين، فقد كان خادمه[4] الأمين، وشرطيه القوى[5] المتين، وصاحب[6] لوائه، وموضع تقديره، ومحل تكريمه وتقديمه.

* * *

---

(١) ابن عبدالبر. الاستيعاب ٢/٣٦.

(٢) ابن حجر. الإصابة ٢/٣٠.

(٣) ابن سعد. الطبقات الكبرى٣/٦١٣.

(٤) ابن الأثير. أسد الغابة ٤/٤٢٥.

(٥) ابن كثير. البداية والنهاية ٨/٩٩.

(٦) الزركلى. الأعلام ٦/٥٦ .

## قيس فى عصر الراشدين رضى الله عنهم

كان قيس ﷺ فى عصر الراشدين كسابق عهده مع النبى ﷺ. فقد عرف الخلفاء فضله وقدَّروا جهده، وأنزلوه المنزل الذى يليق به،والذى يتفق وقدمه فى الجهاد، وماضيه فى نصرة الحق، والتمكين له فى الأرض. ومرجع هذا فى تصورى إلى أسباب:

أحدَها: ما كان عليه قيس من الدهاء[1] والذكاء.

فقد اتفق الرواة على أن دهاة العرب أربعة[2]: قيس بن سعد، وعبدالله بن بديل بن ورقاء، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهم.

ولم يكن قيس ﷺ يستعمل دهاءه فيما يؤذى، ويضر. وإنما كان يستعمله فيما ينفع ويَسر.

ومن هنا علت مكانته، وانتشرت محبة الناس له، وقد شاع عنه فى هذا المجال قوله: لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المكر والخديعة فى النار» لكنت من أمكر هذه الأمة.[3]

وقوله: «لولا الإسلام، لمكرت مكراً لا تطيقه العرب».[4]

(١) ابن كثير. البدية والنهاية ٥/٢٨٣،الزركلى.الأعلام ٦/٥٦.

(٢) الذهبى. سير أعلام النبلاء ٣/١٠٨.

(٣) ابن الأثير. أسد الغابة ٤/٤٢٥. ، ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة ١/٩٥.

(٤) الذهبى. سير أعلام النبلاء ٣/١٠٨.

وواضح من هاتين العبارتين أن إيمان الرجل، وانقياده لدينه، هما اللذان كانا يحكمان تصرفه. ويوجهان أعماله. ومثل هذا الرجل لا يمكنه أن يفارق الخير وهو يعلمه، ولا أن يأتى الشر وهو يجهله. فهو إذن من الذين ينقادون لله، ويمتثلون أمره ونهيه ﴿ومن يُسلِم وجهَهُ إلى الله وهو محسنٌ، فقد استمسك بالعروةِ الوثقى وإلى الله عاقبةُ الأمور﴾.[1]

والسبب الثانى: هو إيثاره ﷺ للطاعة ودخوله فيما دخلت فيه الجماعة، ونأيهُ عن الخلاف والفتنة، وانحيازه إلى الالتئام والوحدة.

فقد اجتمع الأنصار فور وفاة النبى صلوات الله عليه، فى سقيفة بنى ساعدة، وأرادوا إجلاس سعد بن عبادة على أريكة الخلافة.[2] وبلغ الخبر أبا بكر، وعمر، وأبا عبيدة رضى الله عنهم فذهبوا إليهم، ودخلوا فى جدال وحوار معهم ومازالوا بهم حتى أعطوا الصديق ﷺ صفقة أيديهم[3]. ولم يشذ عن هذا الإجماع غيرُ سعد. فقد لجَّ وكابر، وأبى أن يدخل فيما دخل فيه قومه من

---

(١) سورة لقمان. الآية /٢٢.　　(٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٣/٢٠١.

(٣) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ٢/٢٢١-٢٢٣.

بيعة أبى بكر، والاتفاق على استخلافه[1].

والسؤال الذى يطرح نفسه هو أين كان قيس رضي الله عنه من هذا الاجتماع؟ وماذا كان موقفه من أبيه سعد الذى كان يحبه ويأبى نقض ما أبرمه؟.

إن المصادر التى بين يدىّ على كثرتها لم تخبرنا عما إذا كان الرجل قد حضر هذا الاجتماع أم لا. ولا إذا كان قد وقف إلى جانب أبيه أم أن موقفه كان إلى جانب قومه.

والذى لا سبيل إلى الشك فيه، هو أنه رضي الله عنه قد بايع أبا بكر فى المسجد كما بايعه غيره من المهاجرين والأنصار. وأنه وقف إلى جواره يظاهره ويؤازره. فلم يذكر أحد من الرواة أنه تردد أو تلكّأ فى بيعة الصديق رضي الله عنه، ولا أنه أظهر خلافاً، ولا شغباً طوال خلافته.

لهذا كله أرى أن قيساً رضي الله عنه، لم يحضر اجتماع السقيفة. وأنه لم ينحز إلى أبيه فى رفض استخلاف الصديق والدعوة إلى أن تكون الخلافة فى الأنصار دون المهاجرين.

لهذين السببين أحبَّ أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، قيساً وقربوه،وأعطوه من الإجلال والاحترام، ما أعطوه لمثله من سادة الأوس والخزرج ووجهائهم وكانت الأيام تزيد قيسا إجلالا على

(١) ابن الأثير . الكامل فى التاريخ ٢/٢٢٤

إجلال، وكره أبوه المقام فى المدينة بعد استخلاف أبى بكر. وعقد الخناصر أن يفارقها إلى الشام، وقبل الرحيل قسَّم ماله على أولاده وأعطى كل ذى حق حقه، وبعد خروجه من المدينة وضعت إحدى نسائه حملها. ولم يكن سعد قد فطن إليه، أو كان. ولكنه لم يجعل له شيئاً من ماله فاستدعى الخليفة قيساً، وكان فى المجلس عمربن الخطاب رضي الله عنه. فلما حضر سأله الصديق أن يعيد تقسيم مال أبيه ويعطى هذا المولود حقه منه. فقال قيس: والله لا أنكث ما غزل أبى، ولكنى أتنازل لهذا المولود مما أعطاه[1] لى. فكان مثلاً يضرب فى البت، والإيثار معاً.

ومما كان يرفع من شأن قيس فى أعين المهاجرين والأنصار كافة، زهده، ونسكه، وشدة عبادته لربه، حتى إنه كان إذا دخل فى الصلاة غاب عن الدنيا، أو غابت عنه الدنيا، فلا يفكر إلا فى ربه، ولا يشغله عنه شىء مهما عظم أمره، واستشرى خطره، فقد دخل يوماً فى إحدى صلواته، فدنت منه حية، فلم يأبه لها، ولاهاله أمرها. حتى زحفت إليه، وراحت تسعى بين ثوبه وجسده، حتى طوقت عنقه وهو ماضٍ فى صلاته، ولا قصر فى ركن من أركانها، حتى تركته وابتذلت إلى جانبه،

---

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ٩٩/٨.

فلما انتهى من صلاته، أخذها بيده وطوَّح بها بعيدا عنه.[1]

ولا جدال فيما تدل عليه هذه الحادثة من أن قيساً كان نسيجًا فى خشية الله والانصراف إليه، إذا دخل الصلاة خرج عن كل شىء فى هذه الحياة.

ومثل هذا الرجل يجد التقدير ممْن عرفه صغيرا كان أو كبيرا، لاسيما أصحاب النبى صلوات الله عليه، الذين كانوا يحبون لله، ويكرهون لله، ولا يفاضلون بين الناس إلا على أساس من التقوى، والعمل الصالح.

وقد تسأل: وماذا كان قيس يعمل بعد أن لبى النبى عليه الصلاة والسلام نداء ربه؟ والجواب ... أنه كان يخرج للجهاد فى سبيل الله ويشارك فى الجيوش التى كانت تغادر المدينة لفتح البلاد وتنشر الإسلام فى العباد.

والرواة يذكرون - أنه كان ضمن الجيش الذى كان يقوده عمرو ابن العاص لفتح مصر[1] ورفع ألوية الحنيفية السمحة، فوق ربوعها.

---

(١) ابن عبد البر. الاستيعاب ٣/٢٤٩.

وقد تسأل: وهل تولى ﷺ منصباً قياديا، أو منصباً سياسياً فى عهد الشيخين أبى بكر، وعمر، وخلافة ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله عنهم؟

والجواب: أن المصادر التى بين يدى لم تشر إلى شىء من ذلك، ولوكان الرجل قد تولى قيادة جيش أو ولاية مصر من الأمصار لذكرته هذه المصادر، أو بعضها على الأقل.

فإن قلت: ألا يدل هذا على أن الخلفاء الثلاثة أبا بكر، عمر، وعثمان رضى الله عنهم لم يكونوا يقربون قيساً إليهم ولا كانت له حظوة فى قلب واحد منهم؟

والجواب: لا، لأن بعض الوجهاء كانوا يرفضون العمل لأحد بعد النبى صلوات الله وسلامه عليه، وقد ذكرنا هذا آنفاً وجعلنا خالد ابن سعيد بن العاص مثلاً له.[1]

ووجه ثانٍ وهو: أن الكثيرين من المهاجرين والأنصار كانوا يرفضون الإمارة، ويفضلون أن يخوضوا حومة الوغى جنودا مجهولين، ابتغاء المثوبة من المولى عز وجل فى الآخرة.

---

(١) ابن الأثير. أسد الغابة ٢/٩٨.

وعلى هذا الأساس فلا يخلو قيس من أحد أمرين : إما أن يكون ممن يرفضون العمل لغير النبى صلوات الله عليه، أو ممن يأبون تقلد المناصب، ويؤثرون أن يكونوا جنودا مجهولين يستهدفون من وراء ما يعملونه الله والدار الآخرة.

ومن ثم فإن عدم تولى سعد شيئاً من المناصب القيادية والسياسية، لا يستلزم أن يكون غير مقرب من الشيخين، وعثمان رضى الله عنهم.

وأيما كان فإن قيساً قد لزم الطاعة فى حياة الشيخين رضى الله عنهما، وحياة ذى النورين كذلك، فكان سريعاً إلى بيعة كل منهم، وكان وجيهاً فى خلافته وحتى عثمان ﷺ فلم يرو أحد من المؤرخين، وكُتَّاب المغازى أنه شغب عليه، ولا شارك فى لومه ولا فى لوم أحد من عماله، وحتى أثناء حصره وقتله، فإن أحدا لم يقل إنه ظاهر عليه، ولا دعا إلى عزله أو قتله. ومعنى هذا أنه كان بعيدا عن الفتنة، لم يرهف لها سمعه، ولا يشارك فيها بلسانه، ولا بيده. فلما تُسُوِّرت على عثمان الدار، لم يكن قيس ﷺ ضمن المتسورين. ولما اغتالته أيدى البغاة، لم يكن داخل الساحة، ولا كان قريباً منها. ولو كان ما أغفل أعداؤه تسجيلها عليه، ولعدُّوها ضمن أخطائه وعيوبه. فقد كان ﷺ من الوجهاء الذين لا تغمض عنهم الأعين،

ولا يغفل عن رصد أعمالهم الإخباريون والرواة. وقُتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في البلد الحرام، والشهر الحرام، وهو صائم يقرأ القرآن[1].

وعرض الثوّار الخلافة على من ظل على قيد الحياة من أهل الشورى، فأبوها وأشفقوا منها وضاقت الأرض بما رحبت على مشعلى الفتنة، ومسعرى نارها وباتوا على يقين من أنهم إذا لم يستطيعوا تقليد الخلافة لواحد من أولى الحل والعقد بالمدينة، فسوف يأتيهم مالا قبل لهم به، من عمال عثمان على الأمصار، فيغلبونهم، وينزلون بهم ما هم له أهل من الخسف والقتل.

* * *

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ١٨٦/٧.

## قيس فى خلافة على رضى الله عنهما

ومن أجل هذا جمعوا أهل المدينة من المهاجرين والأنصار، وطلبوا منهم أن يختاروا من أنفسهم[1] خليفة. وأنظروهم أياما قليلة، وقالوا لهم : إن لم تفعلوا قتلنا علياً، وغيره من أصحاب الشورى، وأمام هذا التهديد والوعيد، أتى المهاجرون والأنصار علياً وقالوا له[2]: ألا ترى ما نزل بنا؟ ألا تخاف الله؟ ومازالوا يُلحّون عليه فى قبول الخلافة حتى قبلها وهو يقول: «والله لأن أكون وزيرًا، أحب إلى من أن أكون أميرًا. ولأن وضعتم هذا الأمر فى عنق غيرى لأكونن أطوعكم له، وأسرعكم إلى امتثال أمره، واجتناب نهيه»[3] وتمت البيعة لأبى الحسن[4] كرم الله وجهه.

وكان قيس بن سعد رضي الله عنه ممن سارعوا إليه، ووضعوا أيديهم فى يديه[5]. شأنه فى هذا شأن غيره من المهاجرين والأنصار، الذين لم يخامرهم الشك فى أنه أهل للخلافة، وأحق بها ممن سواه من أصحاب الشورى، وغيرهم من سائر الأمة.

---

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٥٦/٥.

(٢) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ٨٧/٣ - ٨٨.

(٣) ابن قتيبة. عيون الأخبار ١/ ٢٠١.

(٤) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٥٦/٥.

(٥) ابن الأثير. أسد الغابة ٤ /٤٢٦.

فهو من السابقين الأولين. وهو من المهاجرين المجاهدين. فضلاً عن أنه ربيب النبى عليه الصلاة والسلام: وابن عمه، وصاحب صهره. وأحد العشرة المبشرين بالجنة. وأحد الثلة الذين بايعوا النبى ﷺ تحت الشجرة، وأحد الستة الذين رشحهم عمر رضي الله عنه للخلافة[1] ومن لا تحصى فضائله، ولا تستقصى مزاياه ومناقبهُ.

وقد كان علىٌّ رضي الله عنه جديرًا أن يقود سفينة الأمة فى هذا البحر الهائج حتى يصل بها آمنة إلى ساحل السلام والوئام. غير أن الظروف من حوله لم تكن مواتية، ولا كان من السهل تطويعُها، والتغلب عليها. فقد غادر الأمويون المدينة حتى لا يدخلوا فى طاعة علىٍّ ولا ينقادوا لبيعته.

ونكث طلحة والزبير رضى الله عنهما عن البيعة، بعد ما بذلاها طائعين لأبى الحسن كرم الله وجهه.[2]

وهما من الستة الذين رشحهم الفاروق رضي الله عنه للخلافة.[3]

وخالف حسان بن ثابت، ونفر من قومه. فلم يعطوا صفقة أيمانهم لعلىٍّ كرم الله وجهه.

---

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ٢٠١/٧.

(٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٧٨/٥ - ١٨١.

(٣) ابن كثير. البداية والنهاية ١٣٥/٧.

وأطلَّت الفتنة بعينيها[١]. وأظهرت خطّمها ورأسها. ولما يستقر الأمر لأمير المؤمنين ﷺ، ولا جاءته البيعة من الأمصار بعد. وأحس ﷺ بالأخطار تُحيط به وتتناوح من حوله فخطب فى الناس خطبة دعاهم فيها إلى وحدة الصف، والتئام الشمل، والإخلاص لله تعالى فى السر[٢] والعلن.

وبدأ فى مباشرة المهمة الملقاة على عاتقه. وأول ما واجهه منها، ولاةُ عثمان ﷺ، وعمالُه على الأمصار والأقاليم.

وقد انقسم الرأى حول هذه القضية الشائكة. ففريق كان يرى أن يُقر علىٌّ ﷺ هؤلاء الولاة والعمال، حتى يهدأ الإعصار، وتصل إليه ﷺ البيعة من الأمصار[٣]. وحجة هذا الفريق هى أن مقاليد الدولة، وجنودها فى أيدى هؤلاء الأمراء. فإذا أقرهم علىٌّ أيدوه، وآزروه، وقطعوا كل يد تحاول الامتداد إلى حكمه[٤]. وعلى رأس

(١) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ٣/٨٨.

(٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥/١٥٧.

(٣) ابن قتيبة. الإمامة والسياسة ص٧٧-٧٨.

(٤) ابن الأثير. الكامل في التاريخ ٣/١٣٦.

هذا الفريق عبد الله بن عباس، والمغيرة بن شعبة[1] في نصيحته الأولى لعلي كرم الله وجهه.

وفريق كان يرى عكس مارآه سلفه تماماً. وهو عزل هؤلاء الولاة والعمال واستبدالهم بغيرهم. وأن يكون هذا على سبيل السرعة، ومن غير تردد، ولا إبطاء[2]. ودليلُهم على صحة ماذهبوا إليه، هو أن هؤلاء الأمراء هم المسئولون عما أصاب الأُمة من الشر، وما تورطت فيه من الفُرقة والفتنة[3]. فإذا أقرهم الخليفة في مناصبهم، والحالة هذه، فإن الناس سيثورون عليه، ويرون أنه وغيره سواء في سوء السيرة، واعوجاج القصد، وعدم استقامة الهدف.

ووجه آخر لا سبيل إلى إغفاله وهو : أن علياً رضي الله عنه لو أقر ولاة عثمان وعماله لأذاعوا في الناس أنهم كانوا ولا يزالون على الحق. ولو لم يكونوا كذلك ما تردد الخليفة في عزلهم منذ الوهلة التي باشر فيها سلطانه. فإذا أراد علي كرم الله وجهه تنحيتهم، وإحلال

(١) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٥٢.

(٢) الطبري. تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٥٧، ١٦١.

(٣) د. عبد العزيز غنيم. الحسين بن علي ص٣٧.

غيرهم محلهم، كان الناس لهم أطوع، وإلى مناصرتهم ومظاهرتهم أشد وأسرع.

وما يقال فى هؤلاء الولاة والعمال، يقال مثله فى معاوية الذى أصر ابن عباس على استثنائه من العزل[١]. فقد كان لا ينشد البقاء على حكم الشام[٢]، وإنما كان يريد الخلافة لنفسه فى حياته[٣]، ولأبنائه وأحفاده بعد وفاته. ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يخضع لأمير المؤمنين عليّ، ويدخل مخلصاً فى طاعته.

وليس أدل على هذا من أن معاوية رَضِيَ الله عنه علّق قميص عثمان رَضِيَ الله عنه[٤] فور استشهاده على أعواد المنبر فى مسجد دمشق. ودعا أهل الشام إلى الثأر له، والقصاص ممن شاركوا فى دمه.[٥]

والذى يدرس جيداً هذه القضية، وبطالع الظروف، لا يملك إلا أن يؤيد وجهة نظر عليّ، ويقف إلى جانبه فيما ارتآه وعقد العزم عليه من وجوب عزل ولاة عثمان وعماله فوراً، من غير تراخٍ بما فيهم معاوية.

---

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٥٢/٥ - ١٥٥

(٢) ابن قتيبة. الإمامة والسياسة ص ١٣٥، ١٥٥

(٣) الطبرى تاريخ الرسل والملوك ١٥٦/٥-١٦٣

(٤) الطبرى تاريخ الرسل والملوك ٢٣٦/٥

(٥) ابن قتيبة. الإمامة والسياسة ص ١٣٥، ١٥٥.

وقد برهنت الظروف على صواب وجهة نظر أبى تراب رضي الله عنه، فقد استجاب ولاة عثمان وعماله جميعاً لقرار العزل[1]، ما خلا معاوية[2] رضي الله عنه، لأنه هو وحده الذى كان طامعاً فى الخلافة، ومصراً على التربع على أريكتها.

وهاهم أولاء عمال على رضي الله عنه، الذين أحلهم محل سابقيهم من عمال عثمان. فقد كتب علىّ كرم الله وجهه بعهده إلى عبد الله بن عباس على اليمن، وإلى سهل بن حنيف على الشام[3]، وإلى أخيه عثمان على البصرة، وإلى قيس بن سعد على مصر[4] وإلى عمارة ابن شهاب على الكوفة. والذى يطالع هذه القائمة من الولاة يرى أن علياً قد أشرك فى حكومته الأنصار والمهاجرين. واليمنيين والمصريين، وأنه قد استعمل العباسيين دون الطالبيين على الرغم من أنه كان منهم من يصلح للخلافة فضلاً عن الإمارة والولاية. فقد كان فيهم الحسن والحسين ومحمد أبناء على[5]، وكان فيهم عقيل وأبناؤه وأبناء جعفر الطيار. ويخيل إلىَّ أن عليا قد أقصى

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٥٧/٥، ١٦٣

(٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٥٧/٥-١٦٣

(٣) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ٩٠/٣ - ٩١

(٤) ابن عبد البر. الاستيعاب ٢٤٩/٣.

(٥) ابن الأثير. أسد الغابة ١٢١/٤

الطالبيين عن العمل له حتى لا يترك لعدو مغمزا ولا لخصم حجة أو مقالة.

وعلى كل حال فقد تولى عمال على أعنة الحكم فى أقاليمهم، وأخذوا البيعة له من أهلها[1]، ما خلا سهل بن حنيف الذى حالت خيل معاوية بينه وبين ما يريد[2]، وكذلك الأمر بالنسبة لعمارة بن شهاب الذى رده طلحة بن خويلد. وهذه هى رواية سيف بن عمر، ولست أشك فيها إلا فيما ذكره بالنسبة لعمارة بن شهاب، وأنه قد سار إلى الكوفة واليًا عليها بدلاً من أبى موسى الذى كان يمنياً مثل أهلها، والذى تأمر عليها من قبل عثمان بإلحاح منهم، ولم يبدر منه ما يدعو إلى عزله، وإقامة غيره مقامه. وأكبر الظن أن أبا موسى لم يعزل إلا بعد أن راح يثبط الناس عن الخروج للقتال[3]، ويدعوهم إلى الصبر والأناة حتى تهدأ الفتنة.

وملاحظة أخرى نأخذها على هذه الرواية وهى أن قيساً لم يكن هو الوالى الأول على مصر من قبل على. فإنه لما هرب عبد الله بن سعد بن أبى السرح عامل عثمان ﵁ على هذا البلد، استولى

---

(1) د. عبد العزيز غنيم. الحسين بن على ص ٣٧.

(2) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥/١٥٦-١٦٣.

(3) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٤/٤٤٣-٤٤٤.

محمد بن أبى حذيفة عليه، وظل بها حتى استدرجه معاوية وحبسه أو قتله. وكان قيس[1] خلفاً له.

وقد كان معاوية رضى الله عنه يعرف ما لعلى من المنزلة، وأنه أحق بالخلافة منه ومن سائر الصحابة الذين لايزالون على قيد الحياة بعد قتل عثمان، وكان يعرف كذلك أن قتاله ليس بالأمر الذى يمكن الإقدام عليه، وليس له مثل أثره وفضله وسابقته، وكان يعرف من جهة ثالثة أن الظروف المحيطة به غير مواتية، فقد كان مهدداً بالخطر من جانب الرومان الذين اشتبكوا معه فى معارك كثيرة برية وبحرية، وكان مهددا كذلك بالخطر من جانب مصر التى كان أكثر أهلها موالين لعلىّ.[2]

وسبب آخر هو أن معاوية لم يكن يطالب بالخلافة، لا لأنه كان يعلم أن علياً كان أحق بها منه فحسب، بل لأن نفوس الأمة لم تكن مهيأة بعد لإجابته إليها إذا طلبها، ولأن طلحة والزبير لم يكونا ليتركاه يظفر إذا هو انحصر على علىّ.

وإذن فقد كانت الحنكة والخبرة السياسية تحتم على معاوية أن

---

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٤/٥٤٦.

(٢) ابن كثير. البداية والنهاية ٨/١٠٠.

يكتفى برفضه بيعة على[1]، وإلزامه شعبة من دم الخليفة المقتول[2]، ووقوفه بعد ذلك ينظر ماسوف تسفر عنه الأحداث فى الوقت الذى يهىء فيه نفسه لخوض المعركة بينه وبين على إذا هو واتته الفرصة، وتهيأت له الظروف.

وقد سلك معاوية هذا السبيل بمهارة وحذق. فسوَّى الأمر بينه وبين إمبراطور الروم، وكتب إلى معتزلى القتال من أعلام الصحابة يعِدهم ويُمنيهم ويستجلب مودتهم، واستدرج محمد بن أبى حذيفة الذى كان قد استولى على مصر لعلىّ وطرد واليها الأموى عبدالله ابن أبى السرح، الذى كان عاملاً عليها من قبل عثمان، وإن كانت الروايات قد اختلفت فى مصير محمد هذا، وهل حبسه معاوية أو قتله[3]، كما سبق وذكرنا. غير أن مصر لم تصفُ لمعاوية بعد حبس ابن أبى حذيفة أو قتله، ولم يكن فى إمكانه أن يدخلها فى جند من أهل الشام، فإن معنى هذا دخوله فى حرب سافرة مع علىّ، ولم تكن ظروفه تسمح له بهذه المخاطرة فى هذا الوقت.

---

(١) ابن قتيبة. الإمامة والسياسة ص ١٣٥.

(٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٤/٢٣٥-٢٣٦.

(٣) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٤/٥٤٦.

وقد تأمر على مصر من قبل عليّ "قيس بن سعد بن عبادة[1]" الذى كان أشد شكيمة وأصعب مراساً، وأدرى بشئون الحرب والسياسة[2] من ابن أبى حذيفة، فقد كان ابناً لسعد بن عبادة، أحد نقباء العقبة[3]، وزعيم الخزرج، وصاحب السقيفة، وكان ذا دهاء[4] وتجربة. وكان من الذين لايستريحون إلى تأمير السابقين من قريش، فضلا عن طلقائها الذين لم يدخلوا الإسلام إلا خوفاً من السيف.

وليس أدل على ثقة قيس فى نفسه، واطمئنانه إلى كياسته، وحسن سياسته من أن علياً لما عرض عليه إمارة مصر، وطلب منه بعد قبوله لها، أن يصحب معه من الجنود مايراه كافياً لشد أزره، وإدخال الرعب فى نفوس أعدائه. رفض وأبى إلا أن يخرج إليها فى سبعة من أهل[5] بيته.

ولما أتى الفسطاط، عمدإلى المسجد، وقرأ على الناس كتاب عليٍّ

(١) المسعودى. مروج الذهب ٢٠/٣.

(٢) الزركلى. الأعلام ٥٦/٦.

(٣) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٦١٤/٣.

(٤) ابن الأثير. أسد الغابة ٤٢٦/٤.

(٥) ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة ٩٧/١.

كرم الله وجهه وذكر الأسباب التى من أجلها بايعه، وانخرط فى سلك رجاله[1]، أعوانه.

وقد اتفق الباحثون على أنه ساس أهل مصر سياسة حزم وعزم، فقرب أنصار علىّ، وصانع أعداءه[2]، واستطاع أن يرفع راية الطاعة والأمن فى ربوع ولايته، حتى أنصار عثمان الذين كانوا يقيمون بقرية يقال لها خربتاء، فقد وادعهم وأمنهم وجبى خراجهم[3]، وكان من حسن حظه أن أحد زعمائهم وهو مسلمة بن مخلد، قد كان من الخزرج التى كان أبوه سيدها وزعيمها غير مُنافَس. ويقال إن مسلمة قد حدثته نفسه بالثورة عليه، فكتب إليه قيس يقول له: "ويحك. والله ماأحب أن يكون لى من الشام إلى مصر وأنى قتلتك"، فأثر هذا الكتاب فى نفس ابن مخلد فرد عليه يقول له: «إنى كاف عنك مادمت أميرًا على مصر».[4]

وقد حاول معاوية كعادته استمالة قيس، فوعده بالمال، ومناه بولاية العراق والحجاز، وطلب منه بعد ذلك أن يسأله ماشاء فسوف لايرد له طلباً ماكان له سلطان، ولما لم يُجْدِ الوعد راح يحذره

(١) ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة ٩٧/١.

(٢) الذهبى. سير أعلام النبلاء ١٠٨/٣.

(٣) ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة ٩٨/١.

(٤) ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة ٩٨/١.

وينذره[1]، عسى أن تلين قناتُه. وكايده قيس فلم يُيَئسه منه. بل أطمعه فيه، وجعله إلى الرجاء والأمل، أقرب منه إلى اليأس والقنوط، ولم تُجدِ المصانعة بالنسبة لكل من الرجلين، فلجئا إلى المصارحة والمشاتمة[2]، ووجد معاوية نفسه مضطرًا إلى أن يسلك سبيل الدس والوقيعة، ويروى الطبرى ماكان بينه وبين قيس فى ذلك من طريقين أحدهما بالسند إلى الزهرى. وتقرر هذه الرواية أن معاوية وعمرو لما يئسا من استمالة قيس الذى كان داهية، وكان صاحب راية الأنصار فى أيام النبى ﷺ، عاده معاوية، فأذاع فى أهل الشام أنه له شيعة، ونهاهم من الدعاء عليه، وعزم على الكتابة إلى شيعته بالعراق حتى يعلم على. وقد علم بالفعل عن طريق محمد بن أبى بكر، ومحمد بن جعفر، وحاول علىٌّ استجلاء أمر قيس فكتب إليه يطالبه بالحرب للعثمانية الذين كانوا يقيمون بخربتا حتى يبايعوا[3]. فأبى، ورأى أن التدبير والسياسة فى مصانعتهم. فهم عشرة آلاف، وهم أشراف الناس ووجوههم. وهو لايكايدهم شئ أهون عليه من هذه المهادنة والمصانعة. ويخير علياً

---

(١) ابن عبد البر. الاستيعاب ٣/٤٩.

(٢) المسعودى. مروج الذهب ٣/٢٠.

(٣) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٤/٥٥٢.

بين قبوله هذه السياسة، وبين عزله إذا هو شك فيه.[1]

وعزله عليٌّ، وولى مكانه الأشتر[2] ولكنه لم يصل إلى مصر، فقد مات في الطريق بالقلزم، فولى مكانه محمد بن أبى بكر[3]، وخرج قيس من المدينة، ولكنه مالبث أن غادرها خوفاً من مروان بن الحكم والأسود بن البختري[4].

وكتب معاوية إلى الرجلين يلومهما لإزعاج قيس. ويذكر أن عودته إلى عليٍّ كانت أقسى عليه من مائة ألف سيف.

ويقول هشام بن محمد وهو صاحب الطريق الثاني: إن ولاية الأشتر إنما كانت بعد مهلك محمد بن أبى بكر، وأن معاوية قد افتعل كتابًا على لسان قيس يقول فيه: "أما بعد فإنى لما نظرت رأيت أنه لايسعنى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرمًا براً تقياً، نستغفر الله عز وجل لذنوبنا ونسأله العصمة لديننا. ألا وإنى قد ألقيت إليكم بالسلم وإنى أجبتك إلى قتال قتلة عثمان رضى الله عنه، إمام الهدى المظلوم. فعول عليّ فيما أحببت من الأموال

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٤/٥٥٢ ـ ٥٥٣.

(٢) ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة ١/١٠١.

(٣) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٤/٥٥٣.

(٤) ابن الأثير. أسد الغابة ٤/٤٢٦.

والرجال أعجل عليك. والسلام».[١]

وأحدث الكتاب أثره فجمع عليٌّ بنيه وخاصته واستشارهم، فرأى محمد بن جعفر عزله. وأقسم عليٌّ أنه لايعرف عنه إلا الخير[٢]، وأرسل قيس يخبر علياً بأهل خربتا، ورأيه فيهم، فكتب إليه يأمره بحربهم إن لم يبايعوا، ورأى قيس أن السياسة فى مصانعتهم[٣]. واقترح محمد بن جعفر عزله، وتولية محمد بن أبى بكر مكانه، وكان أخاه لأمه وقال: إنه علم أن قيساً يقول: إن سلطاناً لايتم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء[٤]، وبلغت هذه الوشاية هدفها، وخرج قيس معزولاً إلى المدينة[٥] حيث شمت به حسان، وعاد قيس ومعه سهل إلى على حيث صدقه، وشهد معه حرب[٦] صفين.

والروايتان كلتاهما متفقتان على أن قيس بن سعد لم يكن هو الوالى

---

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥٥٣/٤.

(٢) الذهبى. سير أعلام النبلاء ١٠٩/٣.

(٣) ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة ١٠٠/١.

(٤) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥٥٤/٤. ٥٥٥.

(٥) ابن الأثير. أسد الغابة ٤٢٦/٤.

(٦) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥٥٥/٤.

الأول على مصر من قبل على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإنما سبقه محمد بن أبى حذيفة الذى استطاع إخراج عبد الله بن سعد بن أبى السرح منها، وإخضاعها لحكم أمير المؤمنين على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.[1]

وهما متفقتان كذلك على إخلاص قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبى الحسن، وحسن سياسته فى ولايته[2]، وأن معاوية لما يئس منه، ولم يستطع استقطابه إلى جانبه، كاد له وانتحل كتاباً على لسانه يؤكد انحيازه إليه، واتفاقه وإياه على أن يكونا معاً يداً واحدة فى طلب الثأر لعثمان والانتقام من قتلته.

وقد كانت الظروف مواتية لمعاوية، فقد كان من أنصار علىّ وخاصته مَن يَتُوق إلى الإمارة على مصر، ويعمل جاهداً للوصول إليها، ومن هؤلاء محمد بن أبى بكر، وعبد الله بن جعفر الذى كان يؤازره؛ لأنه أخوه لأمه[3] أسماء بنت عُميس، التى تزوجها جعفر بن أبى طالب، فلما استشهد فى مؤتة خلف عليها أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما توفى تزوجها على بن أبى طالب، وكان محمد بن أبى بكر، وعبد الله بن جعفر ربيبين فى حجر أبى الحسن كرم الله وجهه[4].

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ١٠٠/٨.   (٢) ابن عبد البر. الاستيعاب ٢٤٩/٣.

(٣) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥٥٣/٤.   (٤) ابن الأثير. أسد الغابة ١٤/٧ - ١٥.

هاتان النقطتان متفق عليهما فى الروايتين السابقتين، وهما: روايتا الزهرى وهشام.

أما النقاط التى اختلفتا فيهما فمنها: مهلك الأشتر. فقد زعم الزهرى أنه كان بعد عزل قيس، وقبل قتل محمد بن أبى بكر[1]. وذكر هشام أن هلاك الأشتر كان بعد استشهاد ابن أبى بكر[2]، وهو الحق؛ لأن ابن أبى بكر لم يقتل إلا بعد دخول عمرو بن العاص مصر، وهو لم يكن بعد صفين.

ونقطة أخرى دار الخلاف حولها وهى: السبب الذى من أجله غادر قيس المدينة بعد أن جاءها معزولاً من قِبَل علىٍّ رضي الله عنه. فقد زعم الزهرى أن قيساً غادرها مضطرا خوفاً من مروان[3] وابن البخترى، وأن معاوية كتب إلى مروان يلومه على مضايقة قيس حتى اضطره إلى مغادرة المدينة، والانضمام إلى علىّ، وأنه أشد عليه من مائة ألف سيف.[4]

وقال هشام: إن قيساً لم يغادر المدينة مرغماً كما يزعم الزهرى، وإنما غادرها بإرادته[5]، وهو الصحيح؛ لأن الحجاز بما

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ٨/١٠٠.
(٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٤/٥٥٣.
(٣) ابن الأثير. أسد الغابة ٤/٤٢٦.
(٤) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٤/٥٥٥.
(٥) ابن كثير. البداية والنهاية ٨/١٠٠.

فيه المدينة لم يدخل تحت حكم معاوية إلا بعد صفين.

وصفوة القول: أن أول ولاة عليّ على مصر، هو محمد بن أبى حذيفة، وليس قيس بن سعد[1]. وأن كيد معاوية، وليست الخيانة لعليّ هو السبب فى عزل قيس عن مصر[2]. وأن مغادرته رضي الله عنه المدينة كانت بإرادته، وليست بإرغام مروان وابن البخترى له[3]. وأن وفاة الأشتر النخعى كانت بعد صفين، وليست قبلها. فقد أجمع الرواة جميعاً على أنه هو الذى كان يقود جند عليّ فيها، وأنه لم يكف عن القتال إلا بعد إرغام عليّ رضي الله عنه على قبول التحكيم.[4]

تبقى معركة الجمل، ولا خلاف فى أن قيساً لم يشهدها، وأن السبب فى هذا هو أنه كان فى مصر أميراً عليها من قبل أبى الحسن على كرم الله وجهه.

ومهما يكن من شىء فإن قيساً قد دخل مصر ضمن الجيش الذى قاده إليها عمرو بن العاص رضي الله عنه[5]، وأنه لمّا تأمر عليها بنى لنفسه فيها داراً ومسجداً، ونشر فى ربوعها الأمن والعدل

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٤/٥٤٦. (٢) ابن الأثير. أسد الغابة ٤/٤٢٦.

(٣) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٤/٥٥٥. (٤) تاريخ اليعقوبى. ٢/١٨٩ - ١٩٠.

(٥) ابن عبد البر. الاستيعاب ٣/٢٤٩.

والمساواة أمام شرع الله[١]، وأنه لم يُعزل عنها من أجل الخيانة أو التقصير، وإنما الذى عزله هو كيدُ معاوية له[٢]، ووجود من يحسده ويشكك فى إخلاصه من أعوان الخليفة وخاصته.

وقد أقمنا على ذلك الحجة تلو الحجة، والدليل إثر الدليل.

وعلى كل حال فإن علياً كرم الله وجهه، لم يشك فى قيس، ولا ساعة واحدة، وقد أبت الأيام إلا أن تزيده به ثقة على ثقة، فقد غادر قيس المدينة بإرادته[٣] بعد ما آوى إليها للإقامة فيها، والراحة بين ظهرانى أهلها محبة لعلىّ رضي الله عنه، ورغبة فى أن يكون إلى جواره فى سلمه وحربه. فإذا دارت المعارك ضرب بسيفه بين يديه، وورد حياض الحتوف دفاعاً عنه. وإذا وضعت الحرب أوزارها كان إلى جواره يمنحه النصح، ويعرضُ عليه الحصيف من الرأى، وقد رأى علىٌّ ذلك فى موقعة صفين، فقد كان فيها قيس سيفاً بتاراً، وبطلاً مغواراً، لا يهاب الكتائب، ولا يخش الشجعان والصناديد[٤]. ولو أتيح لك أن تراه فى حومة الوغى ما رابك الشك فى أنه فلتة من فلتات الدهر، أو فارس من فرسان الأساطير.

وفى أدبار هذه المعركة الضارية، وبعدما عاد معاوية وجنده

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ٨/٩٨.
(٢) ابن الأثير. أسد الغابة ٤/٤٢٦.
(٣) ابن كثير. البداية والنهاية ٨/١٠٠.
(٤) ابن عبد البر. الاستيعاب ٣/٢٤٩.

إلى الشام، وعاد علىّ وجيشه إلى العراق، كان قيس لعلىّ رضي الله عنه المُشير والوزير ومن لا يستغنى عن رأيه وسيفه[1]. فما كاد التحكيم ينتهى بالإخفاق حتى أخذ معاوية يُغيرُ على أطراف دولة علىٍّ، ويستولى عليها شيئًا بعد شىء، وعلىّ ينادى أصحابه فلا يسمعون، ويأمُرهم فلا يستجيبون؛ حتى تمنى أن يصرفهم له معاوية ، صرف الدينار بالدرهم، فيأخذ من جنده الواحد، ويعطى فى مقابله المائة أو الألف[2].

ولو أتيح لك أن تسمعه وهو يخطب رجاله حاضاً إياهم على الحرب، وداعياً إلى القتال والضرب، لحسبت أن كلماته عيون تبكى، أو أكباد تنزف وتتمزق، حتى بلغ به الحال إلى أن يعلن فى رجاله أنه خارجٌ إلى قتال معاوية، حتى لو لم يَتْبَعه منهم أحد.[3]

ولمّا رأى القوم أنه خارج لنصرة حقه، فواردٌ حياض الموت من أجله، قالوا: يا أمير المؤمنين سر بنا متى تشاء، إلى حيث تشاء، فنحن طوع أمرك، ورهن إرادتك. فقال علىّ كرم الله وجهه: مَن يبايعنى على النصر أو الموت؟ فبايعه منهم أربعون ألفا[4].

تُرى من الذى اختاره من رجاله لقيادة هذا الجيش الضخم،

---

(١) الذهبى. سير أعلام النبلاء ١٠٩/٣. (٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥٥٥/٤.
(٣) تاريخ اليعقوبى ١٩١/٢ - ١٩٤ . (٤) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ١٧٥/٣.

وحمل هذه المهمة الشاقة. لقد اختار أجرأهم قلباً، وأمضاهم عزماً، وأقواهم إرادة، وأشدهم شكيمة، وأعمقهم ولاءً وإخلاصاً.

اختار قيس بن سعد[1]، الذى كان ولا يزال نعم القوى الأمين، ونعم السياسى الكيس المتين[2]، ولو طال عمر علىّ كرم الله وجهه، وأمهله الموت حتى وجَّه هذه القوة الضاربة إلى أعدائه، لكان للتاريخ وجهٌ غير وجهه، وطريق غير طريقه الذى سار فيه.

وإن تعجب فعجب ما يزعمه الطبرى، من أن مكاتبات قد جرت بين علىّ ومعاوية، وأنها قد انتهت بالاتفاق بينهما على أن يكون لعلىّ حكم العراق، ويكون لمعاوية حكم الشام، ويكف كل منهما عن صاحبه، فلا يتعدى عليه فى أرض ولا مال.[3]

وما أشك فى أن هذه الاتفاقية لم تبرم بينهما، فقد مات علىّ، وجارية بن قدامة يطارد بسر، ويسترد ما كان قد وضع يديه عليه من مكة والمدينة واليمن[4]. ولم يسرح علىّ الجيش

---

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٥٨/٥.

(٢) الذهبى. سير أعلام النبلاء ١٠٨/٣.

(٣) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٨١/٦.

(٤) د/ عبدالعزيز غنيم. الحسن بن على ص ٤٢ ـ ٤٣.

الذى بايعه على الموت، والذى عبأه لقتال أهل الشام وجعل عليه قيس بن سعد[1]، وكيف تتم هذه الاتفاقية بينهما؟ ولو حدث ذلك لأضاع علىّ حقه فى الخلافة، فى الوقت الذى يخسر فيه أنصاره، ولا يضمن انشقاقهم عليه، ومقاتلتهم له، كما فعلوا ذلك من قبل فى أعقاب صفين[2] وكيف يعترف علىّ لمعاوية بحكم الشام؟ وما سالت الدماء أنهاراً، ولا أزهقت الأنفس آلافاً إلا لإلزامه الطاعة، وإدخاله البيعة؟

ويلوح لى أن معاوية كتب إلى علىّ يعرض عليه هذه الاتفاقية، كلون من ألوان المكيدة، وضرب من ضروب الدهاء. وأن عليا لم يُلق بالاً لهذا العرض، ومضى فى طريقه الذى رسمه لنفسه، وهو العمل على إخضاع معاوية حتى يفىء إلى أمر الله، ويدخل فيما دخل فيه أهل العراق وأهل الحجاز.

ولايمكن أن يتم الاتفاق بينه وبين معاوية على أن يكون له حكم العراق، ولصاحبه حكم الشام، إلا إذا كان هدف على هو الحكم بأية وسيلة، وعلى أية حال أو صورة. وهو ما تأباه سيرة علىّ، ويأباه خُلقه ومبادئه.

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٥٨/٥.
(٢) تاريخ اليعقوبى ١٩٣/٢.

وقد كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جديراً أن ينال حقه، ويقهر معاوية وجنده، لولا المؤامرة التى دُبرت لاغتياله، والتى نجحت فى قطع خيط نفسه، وهو خارج من سُدته ينادى المسلمين : حى على الصلاة.[1]

وهكذا قتل الرجل، وانتهت حياته الجادة، بهذه المأساة الحزينة القاسية.

وكأنما أبى التاريخ إلا أن يزين باسمه صحائف الشهداء المجاهدين، تماما كما زين به من قبل صحائف الأبطال الفدائيين، وكأنما أبى التاريخ كذلك إلا أن تكون نهاية ربيب محمد ﷺ، وابن عمه وصاحب[2] فراشه تماما كبدايتها، مثلاً تمشى به الركبان، ولحنًا تشدُو به الحياة، على قيثارة الأزمان، فقد اغتالته يد الإثم، وهو خارج من سدته يدعو المؤمنين إلى الصلاة، ولفظ آخر أنفاسه، وهو يقول لبنيه: «يابنى الصلاة.. الصلاة».

وإنها لآية من آيات الله أن يكون علىّ هو أول من يجيب محمدًا إلى الصلاة، وأن يكون قتله وهو فى طريقه متجهاً إلى الصلاة.[3]

* * *

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٤٥/٥.

(١) ابن الأثير. أسد الغابة ٩١/٤.

(٢) تاريخ اليعقوبى ٢١٢/٢.

## قيس رضي الله عنه فى خلافة الحسن بن على

تولى الحسن بن على رضى الله عنهما خلافة المسلمين فور وفاة أبيه.

وقد اختلف الباحثون فيما إذا كان استخلافه قد تم بالوصية[1] والعهد؟ أم أنه كان بالشورى والاختيار؟[2]

ويبدو لى أن عليًا كرم الله وجهه، لم يوص بالخلافة لا إلى الحسن ولا إلى غيره، ومرجع هذا فى تصورى إلى أسباب[3]:

أحدها: ماجاء فى تاريخ الرسل والملوك وغيره أن علياً سئل أن يستخلف فأبى، وأنه استشير فى إسناد الأمر إلى الحسن فقال: لا آمركم، ولا أنهاكم.[4]

وثانيها: أن النبى ﷺ لم يعهد بالخلافة، لا إلى أحد من الأنصار، ولا إلى أحد من المهاجرين، وإنما ترك المسلمين أحرارًا يولون عليهم من يشاءون.

وعلىّ رضي الله عنه آثر اقتفاء أثره، واتباع سنته ﷺ.[5]

---

(١) المسعودى. مروج الذهب ٦٠٨/١.

(٢) تاريخ اليعقوبى ١٩١/٢

(٣) د. عبدالعزيز غنيم. الحسين بن على ص ٦٠ ـ ٦١.

(٤) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٤٣/٥ ـ ١٤٧.

(٥) ابن كثير. البداية والنهاية ١٤/٨.

وثالثها: أنه كرم الله وجهه لم يكن راغباً فى الخلافة، حين عــرضت عليــه، وأنه قــال لأهل المدينة وهم يفــاوضــونه فى قبولها: «لأن أكون وزيراً، أحب إلىّ من أن أكون أميراً»(١). وذلك لما كان يستشفه حولها من وراء حجب الغيب من الرزايا والخطوب.

ورابعها: أنه ﷺ لم ير منذ اليوم الذى استخلف فيه، وحتى وافته منيته، يوماً واحداً يستريح فيه. فقد كان لا يخرج من حرب إلا ليدخل فى حرب، ولا ينجو من محنة إلا ينغمس فى أُخرى أنكس وأشد.

وخامسها: أنه ﷺ مُنى فى آخر حياته فى رجاله. فقد خانه بعضهم، وقصر فى نصرته البعض الآخر، حتى لقد كان يدعوهم فلا يستجيبون، ويأمرهم فلا يطيعون(٢). وكان كبده يكاد يتمزق وهو يرى معاوية يُغير على أطراف بلاده، ويثير الخوف والرعب فيها، ويتمنى أن يخرج إلى ساحة القتال وحده، حتى ينال حقه أو يلقى حياض الموت دونه.

---

(١) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٥٢/٥.

(٢) ابن كثير. البداية والنهاية ٢٣٢/٧.

ولو أُتيح لك أن تقرأ الخُطب[1] التى كان يرددها علىّ كرم الله وجهه، فى نهاية حياته لأحسست فيها وخز الحزن، ونبرة الألم، وكأن كلماتها أكباد تنزف، أو أعين تبكى وتنوح.[2]

وسبب واحد من هذه الأسباب فضلاً عن سائرها، يجعله يأبى الوصية، وينفر من الاستخلاف، وينسج على منوال عمر الذى أبى أن يتحملها حياً وميتاً، وأيما كان فقد بويع الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[3].

وكان قيس بن سعد هو أول من ضرب على يده، وأعطاه صفقة يمينه. ويقول المؤرخون: إنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال له: بايعنى على كتاب الله تعالى وسُنة نبيه ﷺ، وقتال المُحلِّين. فقال له: أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فإن ذلك يأتى من وراء كل شرط.[4]

وكان علىّ كرم الله وجهه قد عبأ قبل وفاته أربعين ألفاً، وبايعوه على الموت أو النصر، وأطلق عليهم شرطة الخميس، ووضع زمامهم فى يد قيس بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[5].

ولما استُخلف الحسن أبقى الرجل كما هو، قائداً لشرطة الخميس[6] لم ينزعه عنها، وأضاف إليه عملاً آخر، وهو قيادة

---

(١) ابن أبى الحديد. شرح نهج البلاغة ٢٠٨/٢. (٢) ابن قتيبة. الإمامة والسياسة ص٢٣٨.
(٣) تاريخ اليعقوبى ٢١٤/٢. (٤) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٥٨/٥.
(٥) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٥٨/٥. (٦) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٥٢/٦.

الجيش الذى حشده للخروج لقتال معاوية[1] رضي الله عنه، وبعد ما كتب كل منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الانقياد له، والدخول فى طاعته[2]، وبعد ما أصر الرجلان كلاهما على رأيه، وأنه هو صاحب الحق فى تولى شئون الأمة، وتدبير أمورها.

وقد خلط المؤرخون بين الجيش الذى حشده الحسن، وشرطة الخميس التى حشدها أبوه، وقد بدا هذا واضحاً فى أن الحسن قبل أن يخرج للقتال، نحى قيساً عن القيادة العامة لجيشه، وجعله على مقدمته، وكانت اثنى عشر ألفا، وعين عُبيد الله بن عباس، أو أخاه عبدالله مكان قيس بن سعد فى القيادة العامة.[3]

ومن أجل هذا تساءل بعضُ الباحثين عن السبب الذى من أجله عزل الحسن قيساً عن القيادة العامة، وجعله على المقدمة. وقالوا فى التعليل لذلك: إن الحسن كان رجل سلم، وأن قيساً كان على النقيض منه، وهذا وجه.[4]

ووجه آخر هو: أن الحسن لم يكن مستريحاً إلى قيس، وأنه من أجل ذلك نزعه، وأحل محله رجلاً من أهله وأقاربه، وهو

(١) ابن الأثير. الكامل ٣/١٧٦ ـ ١٧٧.
(٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥/١٥٨.
(٣) ابن الأثير. الكامل ٣/١٧٦ ـ ١٧٧.
(٤) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥/١٥٨.

عبيد الله بن عباس، أو أخوه عبدالله[1]، والرأى عندى أن قيساً كان للحسن كما كان لأبيه: الناصح الذى لايغش، والأمين الذى لايخون، ولم يحدث منه بعد وفاة على مايشككه فيه، ويجعله غير أهل لثقته.

والقول بأن الحسن كان على النقيض من قيس، فهذا رجل سِلْمٍ وصلح، وذاك رجل حرب وضرب، قول لا يستقيم؛ لأن سبب تنحية قيس عن القيادة العامة لو كان هو الاختلاف فى الرأى، والتناقض فى وجهتى النظر بين الخليفة وقائد جيشه، ما اكتفى بعزله عن القيادة العامة، وإنما كانت الضرورة تحتم عليه الاستغناء عنه تماماً، بَيْد أن هذا لم يحدث، فقد أبقاه على شرطة الخميس[2]، وجمع له بين هذه الإمرة، والإمرة على مقدمة جيشه.[3]

وقد أماط الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النقاب عن الأسباب التى من أجلها آثر السلم على الحرب، والتنازل والصلح على الخلافة والحكم، فقال وهو يغادر الكوفة إلى المدينة: «ياأهل الكوفة، لقد سخى بنفسى عنكم ثلاث:[4]

(١) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ١٧٦/٢.
(٢) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٥٢/٦.
(٣) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٥٨/٥.
(٤) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ١٦٠/٥.

«فتلكم أبى، وانتهابكم متاعى، وطعنُكم فى بطنى»

والذى يمعن النظر فى هذه الأسباب لا يسعه أن يؤيد المؤرخين فيما ذهبوا إليه، من أن الحسن رضي الله عنه قد كان صاحب خوان[1]، وفتىً من الفتيان، يؤثر السلام على الحرب، لو كان فى ذلك ضياع لحقه، وإبطال لإحدوثة أبيه.

وإنما كان فارساً كغيره من أبناء أبيه، وأن الظروف المتهاوية من حوله كانت هى السبب الذى كان من أجله تنازل عن حقه، ودخل فى طاعة[2] غيره وكيف يعتمد على رجال قتلوا أباه، ونهبوا متاعه، وطعنوه فى بطنه، ونازعوه بساطًا كان يجلس عليه[3]؟ والأدهى والأمَرّ أن الرجل الذى أمَّره على جيشه قد مشى إلى خصمه، وانخرط فى جنده بعد أن أخذ من المال ما عرضه عليه.[4]

وقد أبت الأيام إلا أن تبرهن على أن قيس بن سعد كان أخلص رجال الحسن، ورجال أبيه من قبله، فقد حاول معاوية أن يَصيدَه بالطعم الذى صاد به القائد العام لجيش الحسن، لكنه لم يجد السبيل إلى ذلك[5]، فقد كان قيس مخلصاً لعلىّ كرم الله

(١) الخوانُ: ما يؤكل عليه.
(٢) ابن قتيبة. الإمامة والسياسة ص٢٣٨.
(٣) المسعودى. مروج الذهب ٦٢١/١.
(٤) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ١٧٥/٣.
(٥) تاريخ اليعقوبى ١٩١/٢ - ١٩٢.

وجهه، وكان مخلصاً لولده الحسن[1] من بعده، وكان المال أحقر من أن يستقطب مشاعره نحو معاوية ولو كان ملءَ طباق الأرض. فقد كان قيس زاهداً فيه، وكان غير مكترث به، وكان صاحب حق يجاهد فى سبيله، ويسترخص الحياة من أجله.

ومن أجل هذا فإن الحسن رضي الله عنه لَمَّا صالح معاوية، وتنازل له عن الخلافة، كتب معاوية إلى قيس يدعوه إلى بيعته، ويؤكد له أنه لم تبق له حجة فى مشاقته والخروج عليه[2]، فخطب رضي الله عنه فى شرطة الخميس مخيراً إياهم بين الدخول فى طاعة إمام ضلالة، وبين القتال، حتى ينصر الحق ولو ماتوا جميعاً دونه.[3]

ولأن هؤلاء قد جنحوا إلى السلم، وكرهوا حياة الحرب والضرب. فإنهم آثروا الخطة الأولى على الثانية. فاستمهلهم قيس حتى يأخذ لهم أماناً من معاوية يطمئنهم على أنفسهم، وعلى ذويهم.[4]

وهكذا دخلت شرطة الخميس هذه فى الطاعة، وآوت إلى الجماعة، وبقى قيس وحده لم يصالح معاوية، ولا أعطاه صفقة يمينه.

---

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ٨/١٠٠.　　(٢) ابن كثير. البداية والنهاية ٨/١٠٠.

(٣) ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة ١/١٠١.

(٤) المسعودى. مروج الذهب ٣/٢٠، الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥/١٦٤.

وقد ظلت الكتب والرسل تمشى بين الرجلين، حتى بايع قيس عزيزاً كريماً لم تنخفض له رأس، ولم تنحنى له هامة[1]. وعلى الرغم من أنه أتى معاوية فرداً، لا قوة له ولا سلطان؛ فإنه كان يكلمه فى عنف، ويخاطبه فى شدة، ومعاوية يحلم عنه، ويتغاضى عن اعتزازه بنفسه، وكبريائه فى ذاته؛ لأنه كان يعرف له قدره ولا ينكر شرفه وعلو شأنه.

وقد روى الطبرى، وغيره أن المفاوضات لما تعثرت بين الرجلين نصح عمرو بن العاص، معاوية بقتاله، فأبى وقال: إن حوله أربعين ألفاً من أهل العراق، وإنهم لن يُقتلوا حتى يقتلوا أمثالهم من أهل الشام، وإنه لا خير فى العيش بعد قتل أولئك وهؤلاء.[2]

ومهما يكن من شىء فإن قيساً غادر العراق، وولى وجهه شطر المدينة المنورة[3]؛ ليعيش فيها ما بقى له من العمر بعيداً عن ميدان الحرب والضرب. وبعيدا عن ميدان السياسة والقيادة. فقد أخذ من كل منهما ما شاء الله له أن يأخذ، وكان عند حسن الظن به، فلم يخن ولم يغدر ولم يُقصِّر فى عمل أسند إليه، ولا

(١) ابن كثير. البداية والنهاية ٨/١٠٠.
(٢) الطبرى. تاريخ الرسل والملوك ٥/١٦٤.
(٣) ابن عبد البر. الاستيعاب ٣/٢٤٩.

ضعف عن مهمة ألقيت على عاتقه. وقد حاول معاوية ﷺ كما أسلفنا أن يستقطبه بالمال تارة، وبالجاه والسلطان تارة أخرى. فتحطم سعيه على صخرة إبائه وإخلاصه[1]. وأثبتت الظروف لأبى الحسن وابنه من بعده أنه كان أشد رجالهما إخلاصاً لهما، وأكثرهم إيثارا لصالحهما، وأنكاهم جرحًا لعدوهما.

وكان إسناد على ﷺ شرطة الخميس إليه[2] دون غيره، شهادة له على أنه صاحب ثقته، وأعلى جنده منزلة فى نفسه. والأمر كذلك بالنسبة لولده الحسن ﷺ. فقد سارع ابن عمه عبيد الله بن عباس، أو أخوه عبد الله إلى معاوية. واستجاب لإغرائه، ووضع يده فى يده.[3]

وكان عمله هذا أحد الأسباب التى من أجلها ضاق صدره بالخلافة، وذهبت ثقته فى حُماتها، فتنازل عنها، ودخل فى الصلح الذى عرضه عليه معاوية.[4]

(١) تاريخ اليعقوبى٢/١٩١ - ١٩٢.

(٢) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٥٢/٦.

(٣) تاريخ اليعقوبى ١٩١/٢ .

(٤) تاريخ اليعقوبى ١٩٢/٢.

أمـا قـيس رضي الله عنه فـإنه ثبت على مـبـدئه حـتى بعـد أن تنازل الحسن لصاحبه، وحمل رحله وأهله، وآوى إلى دار هجرة[١] جده صلوات الله وسلامه عليه.

وقـد بذل مـعـاوية فى سـبـيل اسـترضاء قـيس، ودخـوله فى طاعـتـه كل شيء، فـعـرض عليـه المال فـأبى، وعـرض عليـه الجاه فـأبى كـذلك[٢]، ولم يطلب منه إلا شـيـئـاً واحـداً، وهـو تـأمين الأربعين ألفًا الذين تركهم علىّ كرم الله وجهه تحت قيادته على أنفـسـهـم وأمـوالهم، وأهليـهم[٣]. فنزل الرجل على شـرطتـه، ولم يكتف بهذا، إنما بعث إليـه صـحيـفـة ختـمـهـا فى أسـفلهـا، وقـال لرسـوله: قل له أن يكتب فـيـهـا مـا يشـاء فـهـو له، فـأبى رضي الله عنه أن يكتب فيها شيئا لنفسه[٤]، وكيف لا تكون هذه فعاله وقد انقطع لخـ.مـة النبى صلوات الله عليـه عـشـر سنين[٥]. وهى المدة التى قضاها عليه الصلاة والسـلام فى المدينة[٦]. تعلم فيها الشموخ والإباء والإخـلاص والعطاء، والصبـر على صـروف الحيـاة مهـمـا

(١) ابن عبد البر. الاستيعاب ٣/٢٤٩.
(٢) تاريخ اليعقوبى ٢/ ١٩١.
(٣) المسعودى. مروج الذهب ٣/٢٠.
(٤) الطبرى تاريخ الرسل والملوك ٥/١٦٤.
(٥) ابن عبد البر. الاستيعاب ٣/٢٤٩.
(٦) المقريزى. إمتاع الأسماع ١/٦١.

قست، والصمود لرزايا الدهر مهما اشتدت وادلهمت، وقد يخيل إليك أن قيسًا قد اعتكف فى داره بعد أن ودع دنيا الإمارة والسياسة وليس كذلك. وإنما فرغ للعلم ينشره، وللحديث يرويه عن النبىﷺ[1] لمن يحمله ويذيع فقهه ممتثلا فى ذلك قوله ﷺ: «لا تكتبوا عنى شيئا، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه وحدثوا عنى ولا حرج، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوء مقعده من النار[2]». وقوله ﷺ: «نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها، فأداها كما سمعها، فرُب مبلغ أوعى من سامع، ورُب حامل فقه إلى من هو أفقه منه[3]».

وأنت إذا قرأت كتب التراجم والطبقات رأيتها تذكر شيوخ قيس، وتلاميذه من أصحاب النبى ﷺ ومن التابعين لهم بإحسان[4]. فلا تشك حينئذٍ فى أنه كان أحد المحدثين[5] الذين بذلوا الكثير فى التمكين لسنة رسول الله ﷺ ونشرها فى الأمصار.

---

(١) ابن الأثير. أسد الغابة ٤/٤٢٦.

(٢) ابن حجر. فتح البارى١/٢٤١ - ٢٤٥. ط الريان. (٣) الترمذى. السنن ٥/٣٤.ط. الحلبى.

(٤ ابن عبد البر. الاستيعاب ٣/٢٤٩. (٥) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٦/١٤.

وكانت لقيس رضي الله عنه مناقب أخرى كثيرة غير نشر العلم منها: سخاؤه الذى كان مضرب الأمثال.[1] والذى كان يقول النبى ﷺ عنه: إن «قيساً لمن بيت سخاء وجود».[2]

روى الإخباريون، وكُتّاب السير، أن قيساً عاد من عند معاوية رضي الله عنه وقد باعه أرضا بسبعين ألفًا، وعاد إلى المدينة ففرق هذا المال الهائل على المدينين، وذوى الحاجات من أهل المدينة.[3]

ورووا كذلك أنه لما مرض أحس إبطاء الناس عن زيارته فقال لامرأته وكانت أختا لأبى بكر الصديق رضي الله عنه[4]: ألا تلاحظين إبطاء الناس عن زيارتى؟ قالت: بلى. قال: فهل تعرفين سبب ذلك؟ قالت: لا. فمثلك لايبطىء الناس عنه. قال: ولكنى أعرف أن عليهم ديوناً، وأنهم يستحيون أن يأتوا إلىَّ وعليهم هذه الديون. مُر الغلمان أن يحملوا صكوك المدينين ويدفعوها إليهم. فقد تنازلت عن ديونهم.

قال الرواة: فأقبل الناس إليه أرسالاً، وتزاحموا حول داره حتى كسروا أبوابها لمطالعة وجهه.[5]

وقد سبق وذكرنا أن قيساً كان يستدين ليطعم الجائع، ويكسو العارى، ويسد حاجة المحتاج[6]. وأن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة،

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ٨/٩٩.
(٢) الذهبى. سيد أعلام النبلاء ٣/١٠٥.
(٣) الذهبى. سيد أعلام النبلاء ٣/١٠٧.
(٤) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٨/٢٤٩.
(٥) ابن عبدالبر. الإستيعاب ٣/٢٤٩.
(٦) ابن الأثير. أسد الغابة ٤/٤٢٦.

رضى الله عنهم كانوا ينكرون هذا عليه ويقولون: إنه إن استمر فى هذا بدد أموال أبيه[1]. وكان أبوه يشجعه ويعاونه، ويدفع له أضعاف مايعطى[2]، ويقول فى حضرة النبى ﷺ: من عُزَيْرى من ابن قحافة، وابن الخطاب، أنهما يُبَخِّلان علىّ ولدى».[3]

وإن ينس التاريخ فلا ينسى حمل القصاع التى كان يرسلها أبوه كل ليلة إلى دار أبى أيوب رضي الله عنه أثناء إقامة النبى ﷺ[4] فيها، وإلى بيوت نسائه بعد ذلك[5]، فإنها دليل واضح، وحجة ظاهرة على أن قيساً وأباه سعد وجده عبادة كانوا أمثالاً تضرب فى البذل والعطاء والجود والسخاء[6]، وقبل هذا كله وبعد هذا كله كان قيس قانتاً أوَّاهًا[7] يقضى نهاره فى قضاء حوائج الناس، وزلفاً من ليله فى العبادة والتضرع والابتهال والدعاء، يتجافى جنبه عن مضجعه، يناجى ربه راكعاً ساجداً، قارئاً للقرآن، متأملاً فيه، فإذا تلا آية فيها ذكر للجنة سأل ربه أن يجعله من أصحابها، وإذا تلا آية فيها ذكر للنار بكت عيناه واشتد نحيب قلبه، وسأل ربه أن يباعد بينه وبينها، وكان رضي الله عنه إذا كبرّ للصلاة أدار ظهره للدنيا وأقبل إلى الآخرة، وذهل عن كل شىء فى هذا

---

(١) ابن الجوزى. صفة الصفوة ٧١٧/١.
(٢) الذهبى. سير أعلام النبلاء ١٠٥/٣.
(٣) ابن الأثير. أسد الغابة ٤٢٤/٤.
(٤) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٦١٤/٣.
(٥) ابن الأثير. أسد الغابة ٢٥٦/٢.
(٦) الذهبى. سيد أعلام النبلاء ١٠٥/٣.
(٧) ابن عبدالبر . الإستيعاب ٢٤٩/٣.

الوجود، فلا ترى عيناه غير نور مولاه، ولاتسمع أذناه سوى أمره ونهيه وإرشاده ونصحه.

دنت منه حية رقطاء وراحت تسعى بين جلده وثوبه حتى طوقت عنقه ثم طفقت تنسحب عنه شيئاً فشيئاً حتى ابذألت إلى جانبه وهو فى صلاته لم ينتبه إليها، ولا فكر فيها، فلما سلم ورآها إلى جانبه فزع منها وخاف شرها ثم نحاها وابتعد عنها[1]، ترى لماذا لم يفعل ذلك وهو فى صلاته؟ لماذا لم يفر منها ويقصر الصلاة أو يقطعها اتقاءً لأذاها؟ ولاجواب إلا أن هيبته لربه واستشعاره لجبروته وسلطانه قد أذهله عن كل شيء، وكيف لا وقد قال الله فى حق القارئين لكتابه والمتدبرين لذكره: **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾**[2] وقال فى شأنه مع كليمه موسى بن عمران عليه السلام: **﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾**.[3]

---

(١) المسعودى. مروج الذهب ٢/ ٢١.

(٢) سورة الحشر الآية : ١٢.

(٣) سورة الأعراف الآية: ١٤٣.

تلك نفوس عرفت ربها واستشعرت هيبته وجبروته، فلم تنتبه لشيء سواه، ولم تفكر في أحد غيره، فإذا وقفت بين يديه غابت عن الدنيا وغابت عنها الدنيا **﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لايسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون . لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾**.[1]

وقد اختلف المؤرخون في السنة التي لبى فيها قيس بن سعد نداء ربه، أهي الثامنة والخمسون[2] للهجرة؟ أم التاسعة والخمسون[3]؟ أم لا هذه، ولاتلك، وإنما عاش رضي الله عنه حتى نهاية خلافة عبدالملك بن مروان ومات في الخامسة والثمانين[4]؟

والقول الأول في رأيي هو الصحيح[5]، إذ لو عاش حتى نهاية حكم عبدالملك بن مروان لما أغفل التاريخ ذكره طوال هذه الفترة، ولكان له من المواقف لاسيما في استشهاد الحسين بن علي مايرغم التاريخ على تسجيلها والوقوف طويلاً حيالها.

فقد أشرب قلبه رضي الله عنه حب النبي ﷺ، وحب أهل بيته، وقضى

(١) سورة الأنبياء، الآيات : ١٠١ ـ ١٠٣.
(٢) الذهبي. سير أعلام النبلاء ٣/١٠٩.
(٣) ابن سعد. الطبقات الكبرى ٦/٥٢.
(٤) ابن عبدالبر. الاستيعاب ٣/٢٤٩.
(٥) ابن عبدالبر. الاستيعاب ٣/٢٤٩.

حياته إلى جانبهم مخلصًا لهم، معرضًا نفسه للحتوف فى سبيلهم، فسلام على قيس فى الأولين، وسلام على قيس فى الآخرين، ولا أخزاه ربه يوم يبعثون، يوم لاينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

* * *

# المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

ـ ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن الأثير الجزرى. ت سنة ٦٣٠هـ

٢ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة. طبعة دار الشعب. القاهرة. سنة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م. تحقيق : محمد إبراهيم البنا وآخرين.

٣ ـ الكامل فى التاريخ. المطبعة المنيرية. القاهرة. ط١. سنة ١٣٤٩هـ. تحقيق: عبدالوهاب النجار.

ـ ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ت سنة ٨٧٤ هـ.

٤ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. طبعة دار الكتب المصرية. القاهرة سنة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

ـ ابن الجوزى: أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزى: ت ٥٩٧هـ.

٥ ـ صفة الصفوة. طبعة حلب، سوريا. سنة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م. تحقيق: محمود فاخورى.، ومحمد رواس قلعجى.

- ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى. ت سنة ٨٥٢ هـ .

٦ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة. مطبعة السعادة. القاهرة. ط١. سنة ١٣٢٨هـ.

- ابن حزم: الإمام أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى. ت سنة ٤٥٦هـ.

٧ ـ جوامع السيرة النبوية. هدية مجلة الأزهر. من شهر ربيع الأول، حتى شهر شعبان. سنة ١٤١٣هـ . ١٩٩٢م. إعداد وتقديم: أحمد حسن جابر رجب.

- الذهبى: الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى. ت سنة ٧٤٨هـ:.

٨ ـ سير أعلام النبلاء. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط: سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م. تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع. كاتب الواقدى. ت سنة ٢٣٠هـ.

٩ ـ الطبقات الكبرى. طبعة الأهرام. القاهرة. سنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م. تحقيق. د: حمزة النشرتى. وآخرين. طبعة التحرير.

- ابن سيد الناس: محمد بن عبدالله بن يحيى بن سيد الناس. ت سنة ٧٣٤هـ.

١٠ - السيرة النبوية. المسمى: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير. مكتبة القدسى. القاهرة. سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- الصالحى: محمد بن يوسف الصالحى الشامى. ت سنة ٩٤٢هـ:

١١ - سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد. وزارة الأوقاف. القاهرة. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. لجنة إحياء التراث. سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م. تحقيق د/ مصطفى عبدالواحد وآخرين.

الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى. ت سنة ٣١٠هـ.

١٢ - تاريخ الرسل والملوك. طبعة دار المعارف بمصر. تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم.

١٣ - تفسير الطبرى. المسمى جامع البيان عن تأويل آى القرآن. طبعة مصطفى الحلبى. القاهرة. ط٣. سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٨٦م.

- ابن عبدالبر: أبو عمر يوسف بن عبدالبر النمرى القرطبى الأندلسى. ت سنة ٤٦٣هـ.
١٤ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب على هامش الإصابة: لابن حجر. مطبعة السعادة. القاهرة. ط١. سنة ١٣٢٨هـ.
١٥ - د. عبدالعزيز غنيم. الحسين بن على. أمام محكمة التاريخ. دار العلوم للطباعة. ط١. سنة ١٩٧٦م.
- ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى. ت سنة ٢٧٦هـ.
١٦ - الإمامة والسياسة. طبعة النيل بالقاهرة.
١٧ - عيون الأخبار. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٧٣م.
- ابن كثير: الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى. ت سنة ٧٧٤هـ.
١٨ - البداية والنهاية. مطبعة النور الإسلامية. بيروت . لبنان.
١٩ - تفسير القرآن العظيم. طبعة دار الشعب. القاهرة. تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا. وآخرين.
- الكلاعى: أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعى الأندلسى. ت سنة ٦٣٤هـ.

٢٠ ـ الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء. مكتبة الخانجى القاهرة. سنة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م. تحقيق: مصطفى عبدالواحد.

ـ المدائنى: عز الدين عبدالحميد بن أبى الحديد المدائنى. ت سنة ٦٥٥هـ.

٢١ ـ شرح نهج البلاغة. دار إحياء الكتب العلمية. تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم.

ـ المقريزى: تقى الدين أحمد بن على المقريزى. ت سنة ٨٤٥هـ

٢٢ ـ إمتاع الأسماع بما للنبى عليه الصلاة والسلام من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع. دار الأنصار. القاهرة. ط١. سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م. تحقيق: محمد عبدالحميد النميسى.

ـ المسعودى: أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى. ت سنة ٣٤٦هـ .

٢٣ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر. طبعة دار الفكر. ط ٥. سنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد.

- ابن هشام: أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافرى. ت سنة ٢١٣هـ.
٢٤ - السيرة النبوية. مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة. سنة ١٩٧٤م. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد.
- الواقدى: محمد بن عمر بن واقد الواقدى. ت سنة ٢٠٧هـ.
٢٥ - كتاب المغازى. عالم الكتب. بيروت. لبنان. ط٣. سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م. تحقيق: د. مارسدن جونس.
- اليعقوبى: أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبى: ت سنة ٢٨٢هـ أو ٢٨٤هـ.
٢٦ - تاريخ اليعقوبى. دار صادر. بيروت. لبنان.

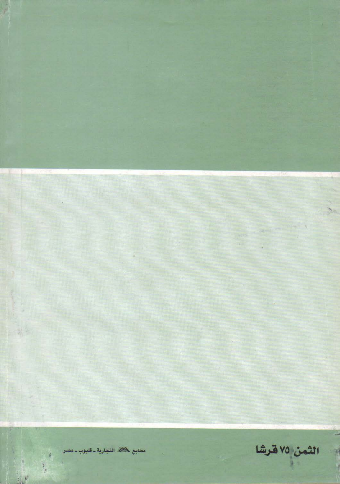
# الفهرس

**الصفحة**





مطابع التجارية - قليوب - مصر


الثمن ٧٥ قرشا
مطابع التجارية - قليوب - مصر